فصل

فى غزوة أحد

ولما قتل الله أشراف قريش ببدر، وأصيبوا بمصيبة لم يصابوا بمثلها، ورَأَسَ فيهم أبو سفيان بن حرب لذهاب أكابرهم، وجاء كما ذكرنا إلى أطراف المدينة فى غزوة السَّوِيق، ولم يَنَلْ ما فى نفسه، أخذ يؤلب على رسول الله ﷺ، وعلى المسلمين، ويجمع الجموع، فجمع قريبا من ثلاثة آلاف من قريش، والحلفاء، والأحابيش[١]، وجاؤوا بنسائهم لئلا يفروا[٢] وليحاموا عنهن، ثم أقبل بهم نحو المدينة، فنزل قريبا من جبل أحد بمكان يقال له : عينين[٣] وذلك فى شوال من السنة الثالثة، واستشار رسول الله ﷺ أصحابه أيخرج إليهم، أم يمكث فى المدينة؟ وكان رأيه ألا يخرجوا من المدينة، وأن يتحصنوا بها، فإن دخلوها قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة، والنساء من فوق البيوت، ووافقه على هذا الرأى عبد الله بن أبى، وكان هو الرأى .

فبادر جماعة من فضلاء الصحابة ممن فاته الخروج يوم بدر، وأشاروا عليه بالخروج، وألحوا عليه فى ذلك، وأشار عبد الله بن أبى بالمقام فى المدينة، وتابعه على ذلك بعض الصحابة، فألح أولئك على رسول الله ﷺ، فنهض، ودخل بيته، ولبس لَأْمَته، وخرج عليهم، وقد انثنى عزم أولئك وقالوا : أكْرَهْنَا رسول الله ﷺ على الخروج، فقالوا : يا رسول الله، إن أحببت أن تمكث فى المدينة فافعل، فقال رسول الله ﷺ : «ما ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها، حتى يحكم الله بينه وبين عدوه»[٤] .

---

(١) الأحابيش : هم أحياء من القَارَة انضموا إلى بنى ليث فى محاربتهم قريشًا . وقيل : حالفوا قريشًا تحت جبل يُسمّى حُبَيْشيًّا فسُمّوا بذلك .

(٢) فى ق : «يهزوا»، وما أثبتناه من خ ، ك ، هـ .

(٣) فى ق : «غيين»، وفى هـ : «عنين»، وما أثبتناه من خ ، ك .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٣ / ٢٧)، وعلق البخارى طرفا منه . فتح البارى (١٣ / ٢٣٩)، وأحمد (٣ / ٣٥١)، والدارمى فى الرؤيا (٢١٥٩) .

فخرج رسول الله ﷺ فى ألف من أصحابه، واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة بمن بقى بالمدينة، وكان رسول الله رأى رؤيا وهو بالمدينة، رأى أن فى سيفه ثُلْمَةً، ورأى أن بقرا تذبح، وأنه أدخل[١] يده فى دِرْعٍ حصينة، فتأول الثلمة فى سيفه برجل يصاب من أهل بيته، وتأول البقر بنفر من أصحابه يقتلون، وتأول الدرع بالمدينة[٢].

فخرج يوم الجمعة، فلما صار بالشَّوْط بين المدينة وأحد، انخزل عبد الله بن أبى بنحو ثلث العسكر، وقال : يخالفنى، ويسمع من غيرى، فتبعهم عبد الله بن عمرو ابن حرام والد جابر يوبخهم، ويحضهم على الرجوع ويقول : تعالوا قاتلوا فى سبيل الله، أو ادفعوا، قالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع، فرجع عنهم، وسبهم .

وسأله قوم من الأنصار أن يستعينوا بحلفائهم من يهود فأبى، وسلك حرة بنى حارثة، وقال : «مَنْ رَجُلٌ يخرج بنا على القوم من كَثَبٍ؟» فخرج به بعض الأنصار حتى سلك فى حائط لبعض المنافقين، وكان أعمى، فقام يحثو التراب فى وجوه المسلمين، ويقول : لا أُحِلُّ لك أن تدخل فى حائطى إن كنت رسول الله، فابتدره القوم ليقتلوه، فقال : «لا تقتلوه، فهذا أعمى القلب أعمى البصر» .

ونفذ رسول الله ﷺ حتى نزل الشِّعْب من أحد فى عُدْوَة الوادى، وجعل ظهره إلى أحد، ونهى الناس عن القتال حتى يأمرهم، فلما أصبح يوم السبت تَعَبَّى[٣] للقتال وهو فى سبعمائة، فيهم خمسون فارسا، واستعمل على الرماة ـ وكانوا خمسين ـ عبد الله بن جبير، وأمره وأصحابه أن يلزموا مركزهم، وألا يفارقوه، ولو رأوا الطير تتخطف العسكر، وكانوا خلف الجيش، وأمرهم أن ينضحوا المشركين بالنبل لئلا يأتوا المسلمين من ورائهم[٤] .

---

(١) فى هـ : «يدخل»، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك.

(٢) انظر: تخريج الحديث السابق . والثُّلْمَة فى الأصل : موضع الكَسْر من الشىء .

(٣) فى ق : «تعبا» ، وما أثبتناه من خ ، ك ، هـ.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٣ / ٢٨، ٢٩)، وأخرجه البخارى فى حديث البراء فى المغازى (٤٠٤٣)، وأحمد (٤ / ٢٩٣، ٢٩٤) .

وظاهر رسول الله ﷺ، بين درعين يومئذ، وأعطى اللواء مُصْعَبَ بن عُمَيْر، وجعل على إحدى المُجَنِّبَتَيْنِ الزبير بن العوام، وعلى الأخرى المنذر بن عمرو .

واستعرض الشباب يومئذ فرد من استصغره عن القتال، وكان منهم[١]: عبد الله ابن عمر، وأسامة بن زيد، وأُسَيْد بن ظَهِير والبراء بن عازب، وزيد بن أرقم، وزيد ابن ثابت، وعَرَابة بن أوس، وعمرو بن حَزْم .

وأجاز من رآه مطيقا، وكان منهم : سَمُرَة بن جُنْدب، ورافع بن خَدِيج، ولهما خمس عشرة سنة، فقيل : أجاز من أجاز لبلوغه ، [وجعلوا حد البلوغ][٢] بالسن خمس عشرة سنة، ورد من رد لصغره عن سن البلوغ .

وقالت طائفة : إنما أجاز من أجاز لإطاقته، ورد من رد لعدم الطاقة، ولا تأثير للبلوغ وعدمه فى ذلك، قالوا : وفى بعض ألفاظ حديث ابن عمر : فلما رآنى مطيقا أجازنى[٣] .

وتَعَبَّتْ قريش للقتال، وهم فى ثلاثة آلاف، وفيهم مائتا فارس، فجعلوا على ميمنتهم خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عِكْرِمة بن أبى جهل، ودفع رسول الله ﷺ سيفه إلى أبى دُجَانَة سِمَاكِ بن خَرَشَة، [وكان شجاعا بطلا يختال عند الحرب][٤] .

وكان أول من بَدَرَ من المشركين أبو عامر الفاسق، واسمه عبد عمرو بن صَيْفِى، وكان يسمى : الراهب، فسماه رسول الله ﷺ الفاسق، وكان رأس الأوس فى

---

(١) فى ق: «فيهم»، وما أثبتناه من خ ، ك ، هـ .

(٢) ساقط من المطبوع .

(٣) الثابت أن النبى ﷺ أجاز من بلغ، انظر: البخارى فى الشهادات (٢٦٦٤)، ومسلم فى الإمارة (١٨٦٨ / ٩١)، وأبو داود فى الخراج والإمارة والفىء (٢٩٥٨)، والترمذى فى الجهاد (١٧١١)، والنسائى فى الطلاق (٣٤٣١)، وابن ماجه فى الحدود (٢٥٤٣)، وأحمد (٢ / ١٧)، والرواية : عن ابن عمر قال : عرضنى رسول الله ﷺ يوم أحد فى القتال، وأنا ابن أربع عشرة سنة فلم يجزنى، وعرضنى يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازنى .

(٤) ليست فى خ ،، ق ، ك، وما أثبتناه من هـ .

الجاهلية، فلما جاء الإسلام شَرِقَ[١] به، وجاهر رسول الله ﷺ بالعداوة، فخرج من المدينة، وذهب إلى قريش يؤلبهم على رسول الله ﷺ ويحضهم على قتاله، ووعدهم بأن قومه[٢] إذا رأوه أطاعوه، ومالوا معه، وكان أول من لقى المسلمين، فنادى قومه، وتعرف إليهم، فقالوا له : لا أنعم الله بك عينا يا فاسق، فقال : لقد أصاب قومى بعدى شر[٣]، ثم قاتل المسلمين قتالا شديدا، وكان شعار المسلمين يومئذ أمِتْ أمِتْ[٤].

وأبلى يومئذ أبو دُجَانَة الأنصارى، وطلحة بن عبيد الله، وأسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب، وعلى بن أبى طالب، وأنس بن النضر[٥]، وسعد بن الربيع .

وكانت الدولة أول النهار للمسلمين على الكفار، فانهزم عدو الله، وولوا مدبرين حتى انتهوا إلى نسائهم، فلما رأى الرماة هزيمتهم تركوا مركزهم الذى أمرهم رسول الله ﷺ بحفظه، وقالوا : يا قوم، الغنيمة الغنيمة، فذكرهم أميرهم عهد رسول الله ﷺ إليهم، فلم يسمعوا، وظنوا أن ليس للمشركين رجعة، فذهبوا فى طلب الغنيمة، وأخلوا الثغر، وكَرَّ فرسان المشركين فوجدوا الثغر خاليا قد خلا من الرماة، فجازوا منه، وتمكنوا حتى أقبل آخرهم، فأحاطوا بالمسلمين، فأكرم الله من أكرم منهم بالشهادة وهم سبعون[٦].

وتولى الصحابة، وخلص المشركون إلى رسول الله ﷺ، فجرحوا وجهه، وكسروا رَبَاعِيَتَه اليمنى، وكانت السفلى، وهشموا البيضة على رأسه[٧]، ورموه بالحجارة

---

(١) شَرِق به : أى: غَصَّ به . شَبَّه ما كان من أمر الإسلام بشىء لم يقدر على إساغته وابتلاعه فغَصَّ به .
(٢) فى خ : «قومهم» ، وما أثبتناه من ق ، ك ، هـ.
(٣) فى ق : «أشر» ، وما أثبتناه من خ ، ك ، هـ.
(٤) أبو داود فى الجهاد (٢٥٩٦)، وأحمد (٤ / ٤٦)، وصححه الألبانى .
(٥) فى ق، هـ : «النضر بن أنس» ، وما أثبتناه من خ ، ك.
(٦) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (٣ / ٤١) .
(٧) البخارى فى المغازى (٤٠٧٥)، ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٩٠ / ١٠١ ـ ١٠٣) .

حتى وقع لشقه، وسقط فى حفرة من الحفر التى كان أبو عامر الفاسق يكيد بها المسلمين، فأخذ على بيده، واحتضنه طلحة بن عبيد الله، وكان الذى تولى أذاه ـ صلوات الله وسلامه عليه، عمرو بن قَمِئَة[١] وعتبة بن أبى وقاص، وقيل : إن[٢] عبد الله بن شهاب الزهرى، عم محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى هو الذى شَجَّه .

وقُتل مصعب بن عمير بين يديه، ودفع اللواء إلى على بن أبى طالب، ونشبت حلقتان من حلق المِغْفَرِ فى وجهه، فانتزعها[٣] أبو عبيدة بن الجراح، وعَضَّ[٤] عليها حتى سقطت ثنيتاه[٥] من شدة غوصها فى وجهه، وامتص مالك بن سنان والد أبى[٦] سعيد الخدرى الدم من وَجْنَتِه، وأدركه المشركون يريدون ما الله حائل بينهم وبينه، فحال دونه نفر من المسلمين نحو عشرة حتى قتلوا، ثم جالدهم[٧] طلحة حتى أجهضهم عنه، وتَرَّسَ أبو دُجانة عليه بظهره، والنبل يقع فيه، وهو لا يتحرك، وأصيبت يومئذ عين قتادة بن النعمان، فأتى بها رسول الله ﷺ، فردها عليه بيده، وكانت أصح عينيه وأحسنها[٨] . وصرخ الشيطان بأعلى صوته : إن محمدا قد قتل، ووقع ذلك فى قلوب كثير من المسلمين، وفر أكثرهم، وكان أمر الله قدرا مقدورا .

مر أنس بن النَّضْرِ بقوم من المسلمين قد ألقوا بأيديهم ، فقال : ما تنتظرون؟ فقالوا : قتل رسول الله ﷺ، فقال : ما تصنعون فى الحياة بعده؟ قوموا، فموتوا على ما

---

(١) فى خ : «قمئة»، وما أثبتناه من ق ، ك ، هـ .
(٢) فى خ : «أبى»، وما أثبتناه من ق ، ك ، هـ.
(٣) فى خ : «فانتزعها» ،وما أثبتناه من ق ، ك ، هـ.
(٤) فى خ : «حض»، وما أثبتناه من ق ، ك ، هـ .
(٥) فى خ : «سقط ثنيتاه»، وما أثبتناه من ق ، ك ، هـ .
(٦) فى خ : «أبو» ، وما أثبتناه من ق ، ك ، هـ.
(٧) فى خ : «جالهم» ، وما أثبتناه من ق ، ك ، هـ.
(٨) دلائل النبوة للبيهقى (٣ / ٢٥١، ٢٥٢)، والسيرة النبوية لابن هشام (٣ / ٤٥، ٤٦) .

مات عليه، ثم استقبل الناس، ولقى سعد بن معاذ فقال : يا سعد، إنى لأجد ريح الجنة من دون أحد، فقاتل حتى قتل، ووجد به سبعون ضربة[١]، وجرح يومئذ عبدالرحمن بن عوف نحوا من عشرين جراحة .

وأقبل رسول الله ﷺ نحو المسلمين، فكان أول من عرفه تحت المغفر كعب بن مالك، فصاح بأعلى صوته : يا معاشر[٢] المسلمين، أبشروا، هذا رسول الله ﷺ، فأشار إليه أن اسكت، واجتمع إليه المسلمون، ونهضوا معه إلى الشِّعْب الذى نزل فيه، وفيهم أبو بكر، وعمر، وعلى، والحارث بن الصِّمَّة الأنصارى، وغيرهم .

فلما أسندوا[٣] إلى الجبل أدرك رسولَ الله ﷺ أُبَىُّ بن خلف على جواد له يقال له: العَوْذ[٤]، زعم عدو الله أنه يقتل عليه رسول الله ﷺ، فلما اقترب منه تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصِّمَّة، فطعنه بها، فجاءت فى تَرْقُوَتِه، فَكَرَّ عدو الله منهزما، فقال له المشركون : والله ما بك من بأس فقال : والله لو كان ما بى بأهل ذى الْمَجَاز لماتوا أجمعين .

وكان يعلف[٥] فرسه بمكة، ويقول : أقتل عليه محمدا، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال : «بل أنا أقتله إن شاء الله»، فلما طعنه تذكر عدو الله قوله : أنه[٦] قاتله، فأيقن بأنه مقتول من ذلك الجرح، فمات منه فى طريقه بسَرِف مرجعه إلى مكة[٧] .

وجاء على إلى رسول الله ﷺ بماء ليشرب منه، فوجده آجنا، فرده، [وغسل عن

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣ / ٤٦)، والحديث رواه مسلم فى الإمارة (١٩٠٣ / ١٤٨)، والترمذى فى تفسير القرآن (٣٢٠٠)، والنسائى فى الكبرى فى المناقب (٨٢٩١) .

(٢) فى هـ : «معشر» ، وما أثبتناه من خ، ق ، ك.

(٣) فى هـ : «اشتدوا»، وما أثبتناه من خ، ق ، ك .

(٤) فى هـ : «القود» ، وما أثبتناه من خ، ق ، ك.

(٥) فى خ : «يعكف» ، وما أثبتناه من ق ، ك ، هـ.

(٦) فى خ : «أنا»، وما أثبتناه من ق ، ك ، هـ .

(٧) السيرة النبوية لابن هشام (٣ / ٤٧)، والطبقات الكبرى لابن سعد (٢ / ٣٥)، ودلائل النبوة للبيهقى (٣ / ٢٥٨، ٢٥٩) .

وجهه الدم، وصب على رأسه][1]، فأراد رسول الله ﷺ أن يعلو صخرة هنالك، فلم يستطع لما به، فجلس طلحة تحته حتى صعدها، وحانت الصلاة، فصلى بهم جالسا، وصار رسول الله ﷺ فى ذلك اليوم تحت لواء الأنصار.

وشد حَنْظَلَةُ الغسيل، وهو حنظلة بن أبى عامر على أبى سفيان، فلما تمكن منه حمل على حنظلة شَدَّادُ بن الأسود، فقتله، وكان جُنبًا، فإنه سمع الصيحة وهو على امرأته، فقام من فوره إلى الجهاد، فأخبر رسول الله ﷺ أصحابه أن الملائكة تغسله ثم قال: «سلوا[2] أهله: ما شأنه؟»، فسألوا امرأته، فأخبرتهم الخبر[3]. وجعل الفقهاء هذا حجة على أن الشهيد إذا قتل جنبا يغسل؛ اقتداء بالملائكة[4].

وقتل المسلمون حامل لواء المشركين، فرفعته لهم عَمْرَةُ بنت[5] علقمة الحارثية، حتى اجتمعوا إليه، وقاتلت أم عُمَارَة ـ وهى نُسَيْبَةُ بنت كعب المازنية ـ قتالا شديدا، وضربت عمرو بن قَمِئَة بالسيف ضربات، فوقَتْهُ دِرْعَان كانتا عليه، وضربها عمرو بالسيف، فجرحها جرحا عظيمًا على عاتقها.

وكان عمرو بن ثابت ـ المعروف بالأُصَيْرَم، من بنى عبد الأشهل ـ يأبى الإسلام، فلما كان يوم أحد قذف الله الإسلام فى قلبه للحسنى التى[6] سبقت له منه، فأسلم، وأخذ سيفه، ولحق بالنبى ﷺ، فقاتل فأُثْبِتَ بالجراح، ولم يعلم أحد بأمره.

---

(١) ليست فى ق، ك، هـ، وما أثبتناه من خ.

(٢) فى خ: «سألوا»، وما أثبتناه من ق، ك، هـ.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٣ / ٣٨)، والحاكم فى المستدرك (٣ / ٢٠٤، ٢٠٥)، وقال: «صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه»، وسكت عنه الذهبى، والبيهقى فى الكبرى فى الجنائز (٤ / ١٥).

(٤) وقال الشوكانى فى نيل الأوطار (٣ / ١١٢) فى كتاب الجنائز، باب ترك غسل الشهيد وما جاء فيه إذا كان جنبا: «وقد استدل بالحديث من قال: إنه يغسل الشهيد إذا كان جنبا، وبه قال أبو حنيفة والمنصور بالله. وقال الشافعى ومالك وأبو يوسف ومحمد وإليه ذهب الهادى والقاسم والمؤيد بالله وأبو طالب: إنه لا يغسل لعموم الدليل وهو الحق؛ لأنه لو كان واجبًا علينا ما اكتفى فيه بغسل الملائكة، وفعلهم ليس من تكليفنا ولا أمرنا بالاقتداء بهم».

(٥) فى ق: «بن»، وما أثبتناه من خ، ك، هـ.

(٦) فى خ، هـ: «الذى»، وما أثبتناه من ق، ك.

فلما انجلت[١] الحرب طاف بنو عبد الأشهل فى القتلى يلتمسون قتلاهم، فوجدوا الأصيرم[٢] وبه رمق يسير، فقالوا: والله إن هذا للأصيرم[٣]، ما جاء به؟ لقد تركناه وإنه لمنكر [لهذا الأمر][٤]، ثم سألوه: ما الذى جاء بك؟ أحَدَبٌ على قومك أم رغبة فى الإسلام؟ فقال: بل رغبة فى الإسلام، آمنت بالله ورسوله، ثم قاتلت مع رسول الله ﷺ حتى أصابنى ما ترون، ومات من وقته، فذكروه لرسول الله ﷺ، فقال: «هو من أهل الجنة»، قال أبو هريرة: ولم يُصَلِّ لله صلاة قط[٥].

ولما انقضت الحرب، أشرف أبو سفيان على الجبل ونادى: أفيكم محمد؟ فلم يجيبوه، فقال: أفيكم ابن أبى قُحَافة؟ فلم يجيبوه، فقال: أفيكم ابن الخطاب؟ فلم يجيبوه، ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة؛ لعلمه وعلم قومه أن قِوَام[٦] الإسلام بهم، فقال: أما هؤلاء فقد كفيتموهم، فلم يملك عمر نفسه أن قال: يا عدو الله، إن الذين ذكرتهم أحياء، وقد أبقى الله لك ما يسوؤك، فقال: قد كان فى القوم مُثْلة لم آمر بها، ولم تسؤنى، ثم قال: أَعْلُ هُبَل، فقال النبى ﷺ: «ألا تجيبونه؟»[٧]، فقالوا: ما نقول؟ قال: «قولوا: الله أعلى وأجلُّ» ثم قال: لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم، قال: «ألا تجيبونه؟»[٨] قالوا: ما نقول؟ قال: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم»[٩].

فأمرهم بجوابه عند افتخاره بآلهته، وبشركه تعظيما للتوحيد، وإعلاما بعزة مَنْ عبده المسلمون، وقوة جانبه، وأنه لا يُغْلَبُ، ونحن حزبه، وجنده، ولم يأمرهم

---

(١) فى خ: «انجابت»، وما أثبتناه من ق، ك، هـ.
(٢) فى خ: «الأصرم»، وما أثبتناه من ق، ك، هـ.
(٣) فى خ: «للأصرم»، وفى هـ: «الأصيرم»، وما أثبتناه من، ق، ك.
(٤) ليست فى خ، ق، ك، وما أثبتناه من هـ.
(٥) السيرة النبوية لابن هشام (٣ / ٥٢، ٥٣)، وأحمد (٥ / ٤٢٨، ٤٢٩)، وقال الهيثمى فى المجمع (٩/ ٣٦٥، ٣٦٦): «رواه أحمد، ورجاله ثقات». والحَدَب: الشَّفَقة والعطف.
(٦) فى خ، ق: «قيام»، وما أثبتناه من هـ.
(٧، ٨) فى ق، هـ: «تجيبوه»، وما أثبتناه من خ، ك.
(٩) البخارى فى المغازى (٤٠٤٣)، وأحمد (٤ / ٢٩٣).

بإجابته حين قال : أفيكم محمد؟ أفيكم ابن أبى قحافة؟ أفيكم عمر؟ بل قد روى أنه نهاهم عن إجابته وقال : لا تجيبوه؛ لأن كَلْمَهُم لم يكن بَردَ بعد فى طلب القوم، ونار غيظهم بعد متوقدة، فلما قال لأصحابه : أما هؤلاء فقد كفيتموهم حمى عمر بن الخطاب، واشتد غضبه، وقال : كذبت يا عدو الله .

فكان فى هذا الإعلام [من الإذلال][(١)] والشجاعة، وعدم الجبن، والتعرف إلى العدو فى تلك الحال ما يُؤْذِنُهم بقوة القوم[(٢)]، وبسالتهم، وأنهم لم يهنوا، ولم يضعفوا، وأنه وقومه جديرون بعدم الخوف منهم، وقد أبقى الله لهم ما يسوؤهم منهم .

وكان فى الإعلام ببقاء هؤلاء الثلاثة، وَهْلَة[(٣)] بعد ظنه، وظن قومه أنهم قد أصيبوا من المصلحة، وغيظ العدو، وحزنه[(٤)] والفتّ فى عضده ما ليس فى جوابه حين سأل عنهم[(٥)] واحدا واحدا، فكان سؤاله عنهم ونعيهم[(٦)] لقومه آخر سهام العدو، وكيده، فصبر له النبى ﷺ حتى استوفى كيده ثم انتدب له عمر فرد سهامه عليه .

وكان ترك الجواب أولا أحسن، وذكره ثانيا أحسن، وأيضا فإن فى ترك إجابته حين سأل عنهم إهانة له، وتصغيرا لشأنه، فلما منّته نفسه موتهم، وظن أنهم قد قتلوا، وحصل له بذلك من الكِبْرِ، والإعجاب ما حصل كان فى جوابه إهانة له، وتحقير وإذلال، ولم يكن هذا مخالفا لقول النبى ﷺ : «لا تجيبوه»، فإنه إنما نهى عن إجابته لمَّا سأل : [أفيكم محمد؟][(٧)] أفيكم فلان؟ [أفيكم فلان؟][(٨)] ولم ينهه عن إجابته لمَّا قال : أما هؤلاء فقد قتلوا . وبكل حال، فلا أحسن من ترك إجابته أولا،

---

(١) ليست فى خ ، ق ، ك ، وما أثبتناه من هـ .
(٢) فى ق : «العزم»، وما أثبتناه من خ ، ك، هـ .
(٣) الوَهْلة : المَرَّة من الفَزَع .
(٤) فى هـ : «حزبه» ، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك.
(٥) فى خ : «سألهم عنهم» ، وما أثبتناه من ق ، ك، هـ.
(٦) فى هـ : «بغيهم» ، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك.
(٧) ليست فى ق ، وما أثبتناه من هـ وفى خ : «أفيكم محمدًا» .
(٨) من ق ، ك، هـ ، وما أثبتناه من خ .

ولا أحسن من إجابته ثانيا .

ثم قال أبو سفيان : يوم بيوم [بدر][(١)]، والحرب سجال، فأجابه عمر فقال : لا سواء، قتلانا فى الجنة، وقتلاكم فى النار[(٢)] .

وقال ابن عباس : ما نُصر رسول الله ﷺ فى موطن نَصْرَهُ يوم أحد، فأنكر ذلك عليه، فقال:بينى وبين من ينكر ذلك كتاب الله، إن الله يقول : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ﴾[آل عمران : ١٥٢] قال ابن عباس : والحَسُّ : القتل، ولقد كان لرسول الله ﷺ ولأصحابه أول النهار، حتى قتل من أصحاب المشركين سبعة أو تسعة[(٣)] . وذكر الحديث .

وأنزل الله عليهم النُّعاس أمنَةً منه فى غزاة بدر، وأُحُدٍ، والنعاس فى الحرب وعند الخوف دليل على الأمن، وهو من الله، وفى الصلاة ومجالس الذكر والعلم من الشيطان .

وقاتلت الملائكة يوم أحد عن رسول الله ﷺ، ففى الصحيحين : عن سعد بن أبى وقاص قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم أحد ومعه رجلان يقاتلان عنه، عليهما ثياب بَيَاض كأشد القتال، ما رأيتهما قَبْلُ، ولا بَعْدُ[(٤)] .

وفى صحيح مسلم : أنه ﷺ أُفْرِدَ يوم أحد فى سبعة من الأنصار، ورجلين من قريش، فلما رَهَقُوه[(٥)] قال : «من يردهم عنا وله الجنة، أو هو رفيقى فى الجنة»، فتقدم

---

(١) ليست فى ق ، ك ، وما أثبتناه من خ، هـ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٣ / ٥٦) .
(٣) أحمد (١ / ٢٨٧، ٢٨٨)، وقال الشيخ أحمد شاكر(٢٦٠٩) : «إسناده صحيح»، وقال الهيثمى فى المجمع (٦ / ١١٣، ١١٤): «فيه عبد الرحمن بن أبى الزناد وقد وثق على ضعفه»، والحاكم فى المستدرك (٢ / ٢٩٦، ٢٩٧) : «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبى .
(٤) البخارى فى المغازى (٤٠٥٤)، ومسلم فى الفضائل (٢٣٠٦ / ٤٦) .
(٥) فى ق: «رمقوه»، وما أثبتناه من خ ، ك، هـ .

رجل من الأنصار فقاتل[(١)] حتى قتل، [ثم رهقوه أيضا فقال: «من يردهم عنا وله الجنة أو هو رفيقي في الجنة»، فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل][(٢)]، فلم يزل كذلك حتى قُتِل السبعة، فقال رسول الله ﷺ: «ما أَنْصَفْنَا أصحابنا»[(٣)]. وهذا يروى على وجهين: بسكون الفاء، ونصب أصحابنا على المفعولية، وفتح الفاء، ورفع أصحابنا على الفاعلية.

ووجه النصب: أن الأنصار لما خرجوا للقتال واحدا بعد واحد حتى قتلوا، ولم يخرج المهاجرون، قال ذلك، أي: ما أنصفت قريش الأنصار.

ووجه الرفع: أن يكون المراد بالأصحاب الذين فروا عن النبي[(٤)] ﷺ حتى أفرد في النفر القليل، فقتلوا واحدا بعد واحد، فلم ينصفوا رسول الله ﷺ، ومن ثبت معه.

وفي صحيح ابن حبان عن عائشة قالت: قال أبو بكر الصديق: لما كان يوم أحد انصرف الناس كلهم عن النبي ﷺ، فكنت أول من فَاءَ إلى النبي ﷺ، فرأيت بين يديه رجلا يقاتل عنه ويحميه، قلت: كن طلحة فداك أبي وأمي، كن طلحة فداك أبي وأمي، فلم أَنْشَبْ أن أدركني أبو عبيدة بن الجراح، وإذا هو يشتد كأنه طير حتى لحقني، فدفعنا إلى النبي ﷺ، فإذا طلحة بين يديه صريعا، فقال النبي ﷺ: «دُونَكُمْ أخاكم فقد أَوْجَبَ»، وقد رُمِيَ النبي ﷺ في جبينه، ورمى في وَجْنَتِه حتى غابت حلقة من حَلَق المِغْفَر في وجنته، فذهبت لأنزعها عن النبي ﷺ، فقال أبو عبيدة: نشدتك بالله يا أبا بكر إلا تركتني؟ قال: فأخذ أبو عبيدة السهم بِفِيه، فجعل يُنَضْنِضُهُ كراهة أن يؤذي رسول الله ﷺ، ثم استل السهم بفيه، فندرت ثَنِيَّة أبي عبيدة، قال أبو بكر: ثم ذهبت لآخذ الآخر، فقال أبو عبيدة: نشدتك بالله يا أبا بكر إلا تركتني؟ قال: فأخذه [بفيه]، فجعل يُنَضْنِضُهُ ثم استله، فندرت ثنية أبي عبيدة الأخرى، ثم قال

---

(١) في ق: «فقاتلت»، وما أثبتناه من خ، ك، هـ.
(٢) ليست في خ، ق، ك، وما أثبتناه هـ.
(٣) مسلم في الجهاد والسير (١٧٨٩ / ١٠٠).
(٤) في خ، هـ: «رسول الله»، وما أثبتناه من ق، ك.

رسول الله ﷺ : «دونكم أخاكم فقد أوجب»، قال : فأقبلنا على طلحة نعالجه، وقد أصابته بِضْع عشرة[١] ضربة[٢] .

وفى مغازى الأموى:إن المشركين صعدوا على الجبل، فقال رسول الله ﷺ لسعد: «اجْنُبْهُمْ» يقول : ارددهم، فقال : كيف أجْنُبُهُمْ وحدى؟ فقال ذلك ثلاثا، فأخذ سعد سهما من كنانته، فرمى به رجلا، فقتله، قال : ثم أخذت سهمى أعرفه، فرميت به آخر فقتلته، ثم أخذته أعرفه، فرميت به آخر فقتلته، فهبطوا من مكانهم، فقلت : هذا سهم مبارك، فجعلته فى كنانتى، فكان عند سعد حتى مات، ثم كان عند بنيه .

وفى الصحيحين عن أبى حازم : أنه سئل عن جُرْح رسول الله ﷺ، فقال : والله إنى لأعرف[٣] من كان يغسل جرح رسول الله ﷺ، ومن كان يسكب الماء، وبما دُووِى، كانت فاطمة ابنته تغسله، وعلى بن أبى طالب يسكب الماء بالمِجَنِّ، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة، أخذت قطعة من حصير، فأحرقتها، فألصقتها، فاستمسك الدم[٤] .

وفى الصحيح : أنه كسرت رباعيته، وشج فى رأسه، فجعل يَسْلُت الدم عنه ويقول : «كيف يُفْلِحُ قوم شجوا [وجه][٥] نبيهم وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم» فأنزل الله عز وجل : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [آل عمران][٦] .

---

(١) فى ق ، هـ : «بضعة عشر»، وما أثبتناه من خ، ك .

(٢) ابن حبان فى الإحسان (٦٩٤١)، وما بين المعقوفتين ساقطة من المطبوع .

وقوله: «فلم أنْشَب» : أى لم ألْبَث . والوَجْنَة : أعلى الخَدِّ . و«يُنَضْنضه» : أى يُحرِّكه . ونَدَرت : أى سقطت .

(٣) فى خ : «إنى لا أعرف»، وما أثبتناه من ق ، ك، هـ .

(٤) البخارى فى المغازى (٤٠٧٥)، ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٩٠ / ١٠١) .

والمِجَنُّ : التُّرس، لأنه يوارى حامله : أى يستره .

(٥) ليست فى خ ، ق ، ك ، وما أثبتناه من هـ .

(٦) البخارى معلقا فى المغازى، الفتح (٧ / ٣٦٥)، ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٩١ / ١٠٤) . وقوله : «وَاهًا» : كلمة تَعجّب من طيب كل شىء، وكلمة تَلهُّف .

ولما انهزم الناس، لم ينهزم أنس بن النضر، وقال : اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء، يعنى المسلمين، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء، يعنى المشركين، ثم تقدم فلقيه سعد بن معاذ فقال : أين يا أبا عمر؟ فقال أنس : وَاهًا لريح الجنة يا سعد، إنى أجده دون أحد، ثم مضى فقاتل القوم حتى قتل، فما عُرِفَ حتى عرفته أخته ببنانه[١]، وبه بضع وثمانون ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم[٢].

وانهزم المشركون أول النهار كما تقدم، فصرخ فيم إبليس : أى عباد الله، أخزاكم، فارجعوا من الهزيمة، فاجتلدوا .

ونظر حذيفة إلى أبيه والمسلمون يريدون قتله، وهم يظنونه من المشركين، فقال: أى عباد الله، أبى، فلم يفهموا قوله حتى قتلوه، فقال : يغفر الله لكم، فأراد رسول الله ﷺ أن يَدِيَه، فقال : قد تصدقت بدمه على المسلمين، فزاد ذلك حذيفة خيرا عند النبى ﷺ[٣].

وقال زيد بن ثابت : بعثنى رسول الله ﷺ يوم أحد لطلب سعد بن الربيع، فقال لى[٤] : «إن رأيته، فأقرئه منى السلام، وقل له : يقول لك رسول الله ﷺ : كيف تَجِدُكَ؟»، قال : فجعلت أطوف بين القتلى، فأتيته وهو فى آخر رمق، وفيه سبعون ضربة ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم، فقلت :يا سعد، إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام، ويقول لك : أخبرنى كيف تجدك؟ فقال: وعلى رسول الله ﷺ السلام، قل له : يا رسول الله، أجد ريح الجنة، وقل لقومى الأنصار : لا عذر لكم عند الله إن خُلِصَ إلى رسول الله ﷺ، وفيكم عين تَطْرِف، وفاضت نفسه من وقته[٥].

---

(١) فى ق: «بثيابه»، وما أثبتناه من خ ، ك، هـ .

(٢) البخارى فى المغازى (٤٠٤٨)، ومسلم فى الإمارة (١٩٠٣ / ١٤٨)، والترمذى فى تفسير القرآن (٣٢٠٠)، وأحمد (٣ / ٢٠١، ٢٥٣) .

(٣) البخارى فى المغازى (٤٠٦٥) .

(٤) فى ق: «قال له»، وما أثبتناه من خ ، ك، هـ .

(٥) السيرة النبوية لابن هشام (٣ / ٥٧)، ومالك فى الموطأ فى الجهاد (٢ / ٤٦٥، ٤٦٦) (٤١) .

ومر رجل من المهاجرين برجل من الأنصار، وهو يَتَشَحَّط[١] فى دمه فقال : يا فلان، أشعرت أن محمدا قد قتل؟ فقال الأنصارى : إن كان محمد قد قتل فقد بلغ[٢]، فقاتلوا عن دينكم فنزل : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران : ١٤٤][٣].

وقال عبد الله بن عمرو بن حرام : رأيت فى النوم قبل أحد مُبَشِّر بن عبد المنذر يقول لى : أنت قادم علينا فى أيام، فقلت : وأين أنت؟ قال : فى الجنة نسرح فيها كيف نشاء[٤]، قلت له : ألم تقتل يوم بدر؟ قال : بلى، ثم أحييت، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال : «هذه الشهادة يا أبا جابر»[٥].

وقال خَيْثَمَةُ أبو سعد بن خيثمة، وكان ابنه استشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر : لقد أخطأتنى وقعة بدر، وكنت والله عليها حريصا، حتى[٦] ساهمت ابنى فى الخروج، فخرج سهمه، فرزق الشهادة، وقد رأيت ابنى البارحة فى النوم فى أحسن صورة، يسرح فى ثمار الجنة، وأنهارها ويقول : الحق بنا ترافقنا [فى][٧] الجنة، فقد وجدت ما وعدنى ربى حقا، وقد ـ والله يا رسول الله ـ أصبحت مشتاقا إلى مرافقته فى الجنة، وقد كبرت سنى، ورَقَّ عظمى، وأحببت لقاء ربى، فادع الله يا رسول الله أن يرزقنى الشهادة، ومرافقة سعد فى الجنة، فدعا له رسول الله ﷺ بذلك، فقتل بأحد شهيدا[٨].

وقال عبد الله بن جَحْشٍ[٩] فى ذلك اليوم : اللهم إنى أقسم عليك أن ألقى

---

(١) فى هـ : «متشحط» . والمعنى : يتخبّط فيه ويضطرب ويتمرغ .
(٢) فى ق : «قتل فبلغ» ، وما أثبتناه من خ ، ك، هـ.
(٣) دلائل النبوة للبيهقى (٣ / ٢٤٨، ٢٤٩) .
(٤) فى خ : «كيف شئت كيف نشاء»، وما أثبتناه من ق ، ك، هـ .
(٥) الحاكم فى المستدرك (٣ / ٢٠٤) وسكت عنه هو والذهبى، ودلائل النبوة للبيهقى (٤ / ٢٤٩) .
(٦) فى هـ : «ثم» ، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك.
(٧) فى ق ، ك ، وما أثبتناه من خ، هـ .
(٨) دلائل النبوة للبيهقى (٣ / ٢٤٩) .
(٩) فى هـ : «عبد الرحمن بن جحش» ، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك.

العدو غدا، فيقتلونى، ثم يَبْقُروا بطنى، ويَجْدَعُوا أنفى وأذنى، ثم تسألنى : فيم ذلك، فأقول : فيك[١] .

وكان عمرو بن الجَمُوح أعرج شديد العرج، وكان له أربعة بنين شباب يغزون مع رسول الله ﷺ إذا غزا، فلما توجه إلى أحد أراد أن يتوجه معه، فقال له بنوه : إن الله قد جعل لك رخصة، فلو قعدت فنحن نكفيك، وقد وضع الله عنك الجهاد، فأتى عمرو بن الجموح رسول الله ﷺ، فقال : يا رسول الله، إن بنى هؤلاء يمنعونى أن أخرج معك، ووالله إنى لأرجو أن أستشهد، فأطأ بعرجتى هذه فى الجنة، فقال له رسول الله ﷺ : «أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد»، وقال لبنيه: «وما عليكم أن تدعوه، لعلَّ الله عز وجل [أن][٢] يرزقه الشهادة[٣]» فخرج مع رسول الله ﷺ، فقتل يوم أحد شهيدا[٤] .

وانتهى أنس بن النضر إلى عمر بن الخطاب، وطلحة بن عبيد الله فى رجال من المهاجرين، والأنصار، وقد ألقوا بأيديهم، فقال : ما يجلسكم؟ فقالوا : قتل رسول الله ﷺ، فقال : فما تصنعون بالحياة بعده؟ فقوموا، فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ، ثم استقبل القوم، فقاتل حتى قُتِل[٥] .

وأقبل أُبَىُّ بن خَلَف، عدو الله، وهو مُقَنَّع فى الحديد، يقول : لا نجوت إن نجا محمد، وكان حلف بمكة أن يقتل رسول الله ﷺ، فاستقبله مُصْعَبُ بن عُمَيْر، فَقُتِل مصعب، وأبصر رسول الله ﷺ تَرْقُوَة أبىِّ بن خلف من فُرْجَة بين سابغة الدرع، والبيضة، فطعنه بحربته، فوقع عن فرسه، فاحتمله أصحابه، وهو يخور خُوَار الثور،

---

(١) الحاكم فى المستدرك (٣ / ١٩٩، ٢٠٠)، وقال : «صحيح على شرط الشيخين، لولا إرسال فيه»، ووافقه الذهبى .

(٢) ليست فى ق ، ك، هـ، وما أثبتناه من خ .

(٣) فى هـ : «لعل يرزقه الله الشهادة»، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٣ / ٥٣)، ودلائل النبوة للبيهقى (٣ / ٢٤٦) .

(٥) السيرة النبوية لابن هشام (٣ / ٤٦)، ودلائل النبوة للبيهقى (٣ / ٢٤٥) .

فقالوا:ما أجزعك؟ إنما هو خَدْشٌ، فذكر لهم قول النبى ﷺ : «بل أنا أقتله إن شاء الله تعالى» فمات بِرَابِغ[١] .

قال ابن عمر : إنى لأسير ببطن رابغ بعد هَوِىٍّ من الليل، إذا نار تَأَجَّجُ لى، فيممتها،وإذا رجل يخرج منها فى سلسلة يجتذبها يصيح العطش، وإذا رجل يقول: لا تسقه، هذا قتيل رسول الله ﷺ، هذا أبىّ بن خلف[٢] .

وقال نافع بن جبير : سمعت رجلا من المهاجرين يقول : شهدت أحدا، فنظرت إلى النَّبْل يأتى من كل ناحية، ورسول الله ﷺ وسطها، كل ذلك يصرف عنه، ولقد رأيت عبد الله بن شهاب الزهرى يقول يومئذ : دلونى على محمد، لا نجوت إن نجا، ورسول الله ﷺ إلى جنبه ما معه أحد، ثم جاوزه، فعاتبه[٣] فى ذلك صفوان، فقال : والله ما رأيته، أحْلِفُ بالله إنه مِنَّا ممنوع، فخرجنا أربعة، فتعاهدنا، وتعاقدنا على قتله، فلم نخلص إلى ذلك[٤] .

ولما مص مالك أبو [أبى][٥] سعيد الخدرى جرح رسول الله ﷺ حتى أنقاه[٦]، قال له : مُجَّهُ، قال : والله لا أمجه أبدا، ثم أدبر، فقال النبى ﷺ : «من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا»[٧] .

قال الزهرى وعاصم بن عمر[٨]، ومحمد بن يحيى بن حبان، وغيرهم : كان يوم أحد يوم بلاء، وتمحيص اختبر الله عز وجل به المؤمنين، وأظهر به المنافقين، ممن كان

---

(١) سبق تخريجه .
(٢) دلائل النبوة للبيهقى (٣ / ٢٥٩) . الهَوِىُّ : الحِين الطويل من الزمان، وقيل : هو مختصّ بالليل .
(٣) فى خ : «ثم عاتبه» ، وما أثبتناه من ق ، ك، هـ .
(٤) دلائل النبوة للبيهقى (٣ / ٢٦٤) .
(٥) ليست فى ق ، ك، هـ ، وما أثبتناه من خ .
(٦) فى خ : «ألقاه»، وما أثبتناه من ق ، ك، هـ .
(٧) دلائل النبوة للبيهقى (٣ / ٢٦٦) .
(٨) فى خ : «عاصم بن عمرو»، وما أثبتناه من ق ، ك، هـ .

يظهر الإسلام بلسانه، وهو مستخف بالكفر، وأكرم فيه من أراد كرامته بالشهادة من أهل ولايته، فكان مما نزل من[(١)] القرآن فى يوم أحد ستون آية من آل عمران أولها: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾[آل عمران: ١٢١] إلى آخر القصة[(٢)].

(١) فى هـ: «من»، وما أثبتناه من خ، ق، ك.
(٢) دلائل النبوة للبيهقى (٣/ ٢٧٤، ٢٧٥).

obeikandl.com

فصل

فيما اشتملت عليه هذه الغزاة من الأحكام والفقه

منها : إن الجهاد يلزم بالشروع فيه حتى إن من لبس لَأْمَتَه، وشرع فى أسبابه، وتأهب للخروج، ليس له أن يرجع عن الخروج، حتى يقاتل عدوه .

ومنها : أنه لا يجب على المسلمين إذا طرقهم عدوهم فى ديارهم الخروج إليه، بل يجوز لهم أن يلزموا ديارهم، ويقاتلوهم فيها، إذا كان ذلك أنصر لهم على عدوهم، كما أشار به رسول الله ﷺ عليهم يوم أحد .

ومنها : جواز سلوك الإمام بالعسكر فى بعض أملاك رعيته، إذا صادف ذلك طريقه، وإن لم يرض المالك .

[ومنها : أنه لا يأذن لمن لا يطيق القتال من الصبيان غير البالغين، بل يردهم إذا خرجوا، كما رد رسول الله ﷺ ابن عمر، ومن معه] (١) .

ومنها : جواز الغزو بالنساء، والاستعانة فى الجهاد بهن .

ومنها : جواز الانغماس فى العدو، كما انغمس أنس بن النضر، وغيره .

ومنها : أن الإمام إذا أصابته جراحة صلى بهم قاعدا، وصلوا وراءه قعودا، كما فعل رسول الله ﷺ، فى هذه الغزوة، واستمرت على ذلك سنته إلى حين وفاته (٢) .

ومنها : جواز دعاء الرجل أن يقتل فى سبيل الله، وتمنيه ذلك، وليس هذا من

---

(١) ليست فى ق ، ك، هـ، وما أثبتناه من خ .

(٢) يراجع: اقتداء القادر على القيام بالجالس وأنه يجلس معه فى نيل الأوطار للشوكانى فى كتاب الصلاة (٢ / ٤٦٤ ـ ٤٦٦) .

تمنى الموت المنهى عنه، كما قال عبد الله بن جَحْش : اللهم لقنى من المشركين رجلا عظيما كفره، شديدا حَرْدُه، فأقاتله، فيقتلنى فيك، ويسلبنى، ثم يجدع أنفى، وأذنى، فإذا لقيتك[١]، فقلت : يا عبد الله بن جحش، فيم جدعت؟ قلت : فيك يارب[٢].

ومنها : أن المسلم إذا قتل نفسه فهو من أهل النار، لقوله ﷺ فى قزمان الذى أبلى يوم أحد بلاء شديدا، فلما اشتدت به الجراح نحر نفسه فقال ﷺ : «هو من أهل النار»[٣].

ومنها : أن السنة فى الشهيد أنه لا يغسل، ولا يصلى عليه، ولا يكفن فى غير ثيابه بل يدفن فيها بدمه، وكُلُومه، إلا أن يُسْلَبَها، فيكفن فى غيرها[٤].

ومنها : أنه إذا كان جُنبًا غُسِّل، كما غسلت الملائكة حنظلة بن أبى عامر[٥].

ومنها : أن السنة فى الشهداء أن يدفنوا فى مصارعهم، ولا ينقلوا إلى مكان آخر فإن قوما من الصحابة نقلوا قتلاهم إلى المدينة، فنادى منادى رسول الله ﷺ بالأمر برد القتلى إلى مضاجعهم.

قال جابر : بين أنا فى النَّظَّارَة إذ جاءت عمتى[٦] بأبى وخالى عادلتهما على نَاضِح، فدخلت بهما المدينة لندفنهما فى مقابرنا، وجاء رجل ينادى : ألا إن رسول الله ﷺ يأمركم أن ترجعوا بالقتلى، فتدفنوها فى مصارعها، حيث قتلت، قال : فرجعنا بهما، فدفناهما فى

---

(١) فى هـ : «أتيتك»، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك.

(٢) سبق تخريجه .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٣ / ٥١) .

(٤) هذا وقد تعرض الإمام ابن القيم لهذه المسألة بالتفصيل فى تهذيب السنن (٤ / ٢٩٥، ٢٩٦) بما يخالف رأيه هنا، وهو ما نراه كذلك، حيث قال فى التهذيب : «والصواب فى المسألة أنه مخير بين الصلاة عليهم وتركها، لمجىء الآثار بكل واحد من الأمرين ... فأصح الأقوال : أنهم لا يغسلون، ويخير فى الصلاة عليهم، ولهذا تتفق جميع الأحاديث، وبالله التوفيق»، وانظر : نيل الأوطار للشوكانى (٣ / ١٢٩، ١٣٣)، وجامع الفقه لابن القيم (٢ / ٤٤٤ ـ ٤٤٦) . طبعة دار الوفاء .

(٥) سبق الكلام على هذه المسألة.

(٦) فى هـ : «عين» ، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك.

القتلى حيث قتلا، فبينا أنا فى خلافة معاوية بن أبى سفيان، إذ جاءنى رجل، فقال :يا جابر، والله لقد أثار أباك عُمَّالُ معاوية، فبدا، فخرج طائفة منهن قال : فأتيته فوجدته على النحو الذى تركته لم يتغير منه شىء قال : فواريته، فصارت سنة فى الشهداء أن يدفنوا فى مصارعهم[١] .

ومنها : جواز دفن الرجلين، أو الثلاثة فى القبر [الواحد، فإن رسول الله ﷺ كان يدفن الرجلين، والثلاثة، فى القبر][٢] ويقول : «أيهم أكثر أخذا للقرآن، فإذا أشاروا إلى رجل قَدَّمَه فى اللحد»[٣] .

ودفن عبد الله بن عمرو بن حرام، وعمرو بن الجَمُوح، فى قبر واحد، لما كان بينهما من المحبة، فقال : «ادفنوا هذين المتحابين فى الدنيا فى قبر واحد»[٤] .

ثم حفر عنهما بعد زمن طويل، ويد عبد الله بن عمرو بن حرام على جرحه كما وضعها حين جرح، فأميطت يده عن جرحه، فانبعث الدم، فردت إلى مكانها، فسكن الدم .

وقال جابر : رأيت أبى فى حفرته حين حفر عليه كأنه نائم، وما تغير من حاله قليل، ولا كثير، قيل له : أفرأيت أكفانه؟ فقال : إنما دفن فى نمرة خُمِّر [بها] وجهه، وعلى رجليه الحَرْمَل[٥]، فوجدنا النمرة كما هى، والحرمل على رجليه على هيئته،

---

(١) أحمد (٣ / ٣٠٨، ٣٩٨)، وأبو داود فى الجنائز (٣١٦٥)، والترمذى فى الجهاد (١٧١٧)، وقال : «حديث صحيح، ونبيح ثقة»، والنسائى فى الجنائز (٢٠٠٥)، وابن ماجه فى الجنائز (١٥١٦)، وصححه الألبانى .
والنَّظَّارة : القوم ينظرون إلى الشىء . والنَّاضِح : الناقة التى يُستقى عليها .

(٢) ليست فى ق ، ك ، وما أثبتناه من خ، هـ .

(٣) البخارى فى المغازى (٤٠٧٩)، وأبو داود فى الجنائز (٣١٣٨)، والترمذى فى الجنائز (١٠٣٦)، والنسائى فى الجنائز (١٩٥٥) .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٣ / ٦٢)، والطبقات الكبرى لابن سعد (٣ / ٤٢٤)، وله شاهد حسن رواه أحمد (٥ / ٢٩٩)، وحسنه الحافظ ابن حجر فى الفتح (٣ / ١٧٨) .

(٥) الحرمل : هو نبت ورقه كورق الخلاف ـ أى الصفصاف ـ ونوره كنور الياسمين، كذا فى اللسان والقاموس المحيط .

وبين ذلك ست[١] وأربعون سنة[٢].

وقد اختلف الفقهاء فى أمر النبى ﷺ أن يدفن شهداء أحد فى ثيابهم، هل هو على وجه الاستحباب والأولوية[٣]، أو على جهه[٤] الوجوب؟ على قولين: الثانى أظهرهما، وهو المعروف عن أبى حنيفة، والأول: هو المعروف عن أصحاب الشافعى، وأحمد.

فإن قيل: فقد روى يعقوب بن شيبة، وغيره بإسناد جيد أن صفية أرسلت إلى النبى ﷺ ثوبين ليكفن فيهما حمزة، فكفنه فى أحدهما، وكفن فى الآخر رجلا آخر[٥].

قيل: حمزة كان الكفار [قد][٦] سلبوه ومثلوا به وبقروا عن بطنه، واستخرجوا كبده، فلذلك كُفِّنَ فى كَفَنٍ آخر. وهذا القول فى الضعف نظير قول من قال: يغسل الشهيد، وسنة رسول الله ﷺ أولى بالاتباع.

ومنها: أن شهيد المعركة لا يصلى عليه؛ لأن رسول الله ﷺ لم يُصَلِّ على شهداء أحد، ولم يعرف عنه أنه صلى على أحد ممن استشهد معه فى مغازيه، وكذلك خلفاؤه الراشدون ونوابهم من بعدهم.

فإن قيل: فقد ثبت فى الصحيحين من حديث عقبة بن عامر، أن النبى ﷺ خرج يوما فصلى على أهل أحد صلاته على الميت ثم انصرف إلى المنبر[٧].

---

(١) فى خ، هـ: «ستة»، وما أثبتناه من ق، ك، هـ.

(٢) مالك فى الموطأ فى الجهاد (٢ / ٤٧٠) (٤٩)، والطبقات الكبرى لابن سعد (٣ / ٤٢٤)، وما بين المعقوفين ساقط من المطبوع.

(٣) فى هـ: «الأولية»، وما أثبتناه من خ، ق، ك.

(٤) فى ق: «وجه»، وما أثبتناه من خ، ك، هـ.

(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد (٣ / ١١).

(٦) ليست فى خ، ق، ك، وما أثبتناه من هـ.

(٧) البخارى فى الجنائز (١٣٤٤)، ومسلم فى الفضائل (٢٢٩٦ / ٣١).

وقال ابن عباس : صلى رسول الله ﷺ على قتلى أحد [١].

قيل :أما صلاته عليهم فكانت بعد ثمانى سنين من قتلهم قرب موته، كالمودع لهم، ويشبه هذا خروجه إلى البقيع قبل موته ليستغفر لهم، كالمودع للأحياء والأموات، فهذه كانت توديعا منه لهم، لا أنها سنة الصلاة على الميت، ولو كان ذلك لم يؤخرها [٢] ثمانى سنين، لا سيما عند من يقول : لا يصلى على القبر، أو يصلى عليه إلى شهر .

ومنها: أن من عذره الله فى التخلف عن الجهاد لمرض، أو عرج، يجوز له الخروج إليه وإن لم يجب عليه، كما خرج عمرو بن الجَمُوح، وهو أعرج .

ومنها: أن المسلمين إذا قتلوا واحدا منهم فى الجهاد يظنونه كافرًا، فعلى الإمام ديته من بيت المال؛ لأن رسول الله ﷺ أراد أن يَدِىَ اليمان أبا حذيفة، فامتنع حذيفة من أخذ الدية، وتصدق بها على المسلمين .

---

(١)ابن ماجه فى الجنائز (١٥١٣)، وقال السندى : «يظهر من الزوائد أن إسناده حسن»، وصححه الألبانى .

(٢)فى هـ : «يؤخر» ، وما أثبتناه من، خ ، ق ، ك.

فصل

فى ذكر بعض الحكم والغايات المحمودة التى كانت فى وقعة أحد

وقد أشار الله ـ سبحانه ـ إلى أمهاتها وأصولها فى سورة «آل عمران»، حيث افتتح القصة بقوله : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ [آل عمران : ١٢١] إلى تمام ستين آية .

فمنها : تعريفهم سوء عاقبة المعصية، والفشل، والتنازع، وأن الذى أصابهم إنما هو بشؤم ذلك، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ﴾[آل عمران : ١٥٢] .

فلما ذاقوا عاقبة معصيتهم للرسول، وتنازعهم وفشلهم، كانوا بعد ذلك أشد حذرا ويقظة، وتحرزا من أسباب الخذلان .

ومنها : أن حكمة الله، وسنته فى رسله وأتباعهم، جرت بأن يُدَالُوا مرة، ويدال عليهم أخرى، لكن تكون لهم العاقبة، فإنهم لو انتصروا دائما دخل معهم المؤمنون وغيرهم، ولم يتميز الصادق من غيره، ولو انتصر عليهم دائما لم يحصل المقصود من البعثة والرسالة، فاقتضت حكمة الله أن جمع لهم بين الأمرين ليتميز من يتبعهم، ويطيعهم للحق، وما جاؤوا به، ممن يتبعهم على الظهور، والغلبة خاصة .

ومنها : أن هذا من أعلام الرسل، كما قال هِرَقْل لأبى سفيان : هل قاتلتموه؟

قال : نعم، قال : كيف الحرب بينكم[١] وبينه؟ قال : سِجَال، يُدَالُ علينا المرة، وندال عليه الأخرى، قال : كذلك الرسل تبتلى، ثم تكون لهم العاقبة[٢] .

ومنها : أن يتميز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب، فإن المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يوم بدر، وطار لهم الصِّيتُ دخل معهم فى الإسلام ظاهرا من ليس معهم فيه باطنا، فاقتضت حكمة الله ـ عز وجل ـ أن سَبَّبَ لعباده محنة ميزت بين المؤمن والمنافق، فَأَطْلَعَ المنافقون رؤوسهم فى هذه الغزوة وتكلموا بما كانوا يكتمونه، وظهرت مُخَبَّآتُهم، وعاد تلويحهم تصريحا، وانقسم الناس إلى كافر، ومؤمن، ومنافق، انقساما ظاهرا، وعرف المؤمنون أن لهم عدوا فى نفس دورهم، وهم معهم لا يفارقونهم، فاستعدوا لهم، وتحرزوا منهم .

قال [الله][٣] تعالى : ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [آل عمران : ١٧٩] .

أى : ما كان الله ليذركم على ما أنتم عليه من التباس المؤمنين بالمنافقين، حتى يميز أهل الإيمان من أهل النفاق، كما ميزهم بالمحنة يوم أحد، وما كان الله ليطلعكم على الغيب الذى يميز به بين هؤلاء، وهؤلاء، فإنهم يتميزون فى غيبه، وعلمه، وهو سبحانه يريد أن يميزهم تمييزا مشهودا، فيقع معلومه[٤] الذى هو غيب شهادة .

وقوله : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [هو] استدراك لما نفاه من اطلاع خلقه على الغيب سوى الرسل،فإنه يطلعهم على ما يشاء من غيبه[٥]، كما قال: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾

(١) فى خ : «بينهم»، وما أثبتناه من ق ، ك، هـ .
(٢) البخارى فى بدء الوحى (٧) .
(٣) ليست فى خ ، ق ، ك ، وما أثبتناه من هـ .
(٤) فى ق : «تمييزه»، وما أثبتناه من خ ، ك، هـ .
(٥) فى خ : «من يشاء ما غيبه»، وما أثبتناه من ق ، ك، هـ .

[الجن : ٢٦، ٢٧]، فحظكم أنتم، وسعادتكم فى الإيمان بالغيب الذى يطلع عليه رسله، فإن آمنتم به وأيقنتم، فلكم أعظم الأجر، والكرامة .

ومنها : استخراج عبودية أوليائه، وحزبه فى السراء، والضراء، وفيما يحبون، وما يكرهون [وفى حال ظَفَرِهم، وظفر أعدائهم [بهم][(١)]، فإذا ثبتوا على الطاعة، والعبودية فيما يحبون، وما يكرهون] [(٢)] فهم عبيده حقا، وليسوا كمن يعبد الله على حرف واحد من السراء، والنعمة والعافية .

ومنها : أنه سبحانه لو نصرهم دائما، وأظفرهم بعدوهم فى كل موطن، وجعل لهم التمكين، والقهر لأعدائهم أبدا، لطغت نفوسهم، وشمخت وارتفعت، فلو بسط لهم النصر والظفر، لكانوا فى الحال التى يكونون فيها لو بسط لهم الرزق، فلا يُصْلِح عباده إلا السراء والضراء والشدة، والرخاء، والقبض، والبسط، فهو المدبر لأمر عباده كما يليق بحكمته، إنه بهم خبير بصير .

ومنها : أنه إذا امتحنهم بالغلبة، والكسرة، والهزيمة ذلوا، وانكسروا، وخضعوا فاستوجبوا منه العز والنصر، فإن خِلْعَة النصر إنما تكون مع ولاية الذُّلِّ والانكسار، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾[آل عمران : ١٢٣]، وقال : ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا ﴾[التوبة : ٢٥] ، فهو ـ سبحانه ـ إذا أراد أن يعز عبده ويجبره، وينصره، كسره أولا، ويكون جبره له، ونصره على مقدار ذله وانكساره .

ومنها : أنه سبحانه هيأ لعباده المؤمنين منازل فى دار كرامته لم تبلغها أعمالهم، ولم يكونوا بالغيها إلا بالبلاء، والمحنة، فقيض لهم الأسباب التى توصلهم إليها من

---

(١) ليست فى خ ، ق ، ك، وما أثبتناه من هـ .
(٢) ليست فى ق ، ك، وما أثبتناه من خ، هـ .

ابتلائه، وامتحانه كما وفقهم للأعمال الصالحة التى هى من جملة أسباب وصولهم إليها .

ومنها : أن النفوس[١] تكتسب من العافية الدائمة، والنصر، والغنى طغيانا وركونا إلى العاجلة، وذلك مرض يعوقها عن جدها فى سيرها إلى الله، والدار الآخرة، فإذا أراد بها ربها، ومالكها، وراحمها كرامته[٢] قيض لها من الابتلاء[٣]، والامتحان ما يكون دواء لذلك المرض العائق عن السير الحثيث إليه، فيكون ذلك البلاء والمحنة بمنزلة الطبيب يسقى العليل الدواء الكريه، ويقطع منه العروق المؤلمة؛ لاستخراج الأدواء منه، ولو تركه لغلبته الأدواء حتى يكون فيها هلاكه .

ومنها: أن الشهادة عنده من أعلى مراتب أوليائه، والشهداء هم خواصه، والمقربون من عباده، وليس بعد درجة الصدِّيقية إلا الشهادة، وهو سبحانه يحب أن يتخذ من عباده شهداء تراق دماؤهم فى محبته، ومرضاته، ويؤثرون رضاه، ومحابه على نفوسهم، ولا سبيل إلى نيل هذه الدرجة إلا بتقدير الأسباب المفضية إليها من تسليط العدو .

ومنها: أن الله سبحانه إذا أراد أن يهلك أعداءه ويمحقهم، قيض لهم الأسباب التى يستوجبون بها هلاكهم، ومحقهم، ومن أعظمها بعد كفرهم بغيهم، وطغيانهم، ومبالغتهم فى أذى أوليائه، ومحاربتهم، وقتالهم، والتسلط عليهم، فيتمحص بذلك أولياؤه من ذنوبهم وعيوبهم، ويزداد بذلك أعداؤه من أسباب محقهم وهلاكهم، وقد ذكر سبحانه وتعالى ذلك فى قوله : ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ

(١) فى هـ: «النفس»، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك .
(٢) فى خ : «كرامة»، وما أثبتناه من ق ، ك، هـ .
(٣) فى ق: «البلاء» ، وما أثبتناه من خ ، ك، هـ.

نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [آل عمران].

فجمع لهم فى هذا الخطاب بين تشجيعهم، وتقوية نفوسهم، وإحياء عزائمهم، وهممهم، وبين حسن التعزية[(١)]، وذكر الحكم الباهرة التى اقتضت إدالة[(٢)] الكفار عليهم فقال: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ﴿١٤٠﴾ ﴾ [آل عمران]، فقد استويتم فى القرح، والألم، وتباينتم فى الرجاء، والثواب كما قال تعالى: ﴿ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء: ١٠٤]، فما بالكم تضعفون وتهنون عند القرح، والألم، فقد أصابهم ذلك فى سبيل الشيطان، وأنتم أصبتم فى سبيلى وابتغاء مرضاتى.

ثم أخبر أنه يداول أيام هذه الحياة الدنيا بين الناس، وأنها عَرَضٌ حاضر يقسمها دُوَلًا بين أوليائه وأعدائه، بخلاف الآخرة، فإن عزها، ونصرها، ورخاءها[(٣)] خالص[(٤)] للذين آمنوا.

ثم ذكر حكمة أخرى وهى أن يتميز المؤمنون من المنافقين، فيعلمهم علم رؤية ومشاهدة بعد أن كانوا معلومين فى غيبه، وذلك العلم الغيبى لا يترتب عليه عقاب ولا ثواب وإنما يترتب الثواب والعقاب على المعلوم إذا صار مشاهدا واقعا فى الحس.

ثم ذكر حكمة أخرى وهى اتخاذه سبحانه منهم شهداء، فإنه يحب الشهداء من عباده، وقد أعد لهم أعلى المنازل، وأفضلها، وقد اتخذهم لنفسه، فلا بد أن ينيلهم درجة الشهادة.

---

(١) فى هـ: «التسلية»، وما أثبتناه من خ، ق، ك.
(٢) فى خ: «أذلة»، وما أثبتناه من ق، ك، هـ.
(٣) فى هـ: «رجاءها»، وما أثبتناه من خ، ق، ك.
(٤) فى ق: «خالصًا»، وما أثبتناه من خ، ك، هـ.

وقوله : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٠] تنبيه لطيف الموقع جدًّا على أن كراهته، وبغضه للمنافقين الذين انخذلوا عن نبيه يوم أحد، فلم يشهدوه، ولم يتخذ منهم شهداء؛ لأنه لم يحبهم، فأركسهم، وردهم ليحرمهم ما خص به المؤمنين فى[1] ذلك اليوم وما أعطاه من استشهد منهم، فثبط هؤلاء الظالمين عن الأسباب التى وفق لها أحبابه وحزبه .

ثم ذكر حكمة أخرى فيما[2] أصابهم ذلك اليوم، وهو تمحيص الذين آمنوا، وهو تنقيتهم وتخليصهم من الذنوب، ومن آفات النفوس، وأيضا فإنه خلصهم، ومحصهم من المنافقين فتميزوا منهم، فحصل لهم تمحيصان : تمحيص فى[3] نفوسهم، وتمحيص من كان يظهر أنه منهم، وهو عدوهم .

ثم ذكر حكمة أخرى وهى محق الكافرين بطغيانهم، وبغيهم، وعدوانهم، ثم أنكر عليهم حُسْبانَهم[4]، وظنهم أن يدخلوا الجنة بدون الجهاد فى سبيله، والصبر على أذى أعدائه، وإن هذا ممتنع بحيث ينكر على من ظنه، وحسبه، فقال : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [آل عمران] أى : ولما يقع ذلك منكم فيعلمه، فإنه لو وقع لعلمه، فجازاكم عليه بالجنة فيكون الجزاء على الواقع المعلوم لا على مجرد العلم، فإن الله لا يجزى العبد على مجرد علمه فيه دون أن يقع معلومه، ثم وبخهم على هزيمتهم من أمر كانوا يتمنونه، ويودون لقاءه فقال : ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ ﴾[آل عمران].

قال ابن عباس : لما أخبرهم[5] الله تعالى على لسان نبيه بما فعل بشهداء بدر من

---

(١) فى هـ : «من»، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك.
(٢) فى ق: «مما»، وما أثبتناه من خ ، ك، هـ .
(٣) فى خ : «من» ، وما أثبتناه من ق ، ك، هـ.
(٤) فى هـ : «حسابهم» ، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك .
(٥) فى خ : «أخبر» ، وما أثبتناه من ق ، ك، هـ.

الكرامة، رغبوا فى الشهادة، فتمنوا قتالا يستشهدون فيه، فيلحقون إخوانهم، فأراهم الله ذلك يوم أحد وسببه لهم، فلم يلبثوا أن انهزموا إلا من شاء الله منهم، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [آل عمران] .

ومنها : أن وقعة أحد كانت مقدمة، وإرهاصا بين يدى موت رسول الله ﷺ، فأنبهم ووبخهم على انقلابهم على أعقابهم أن مات رسوله[1] ﷺ أو قتل، إذ[2] الواجب له عليهم أن يثبتوا على دينه، وتوحيده، ويموتوا عليه، أو يقتلوا، فإنهم إنما يعبدون رب محمد، وهو حى لا يموت، فلو مات محمد، أو قتل لا ينبغى لهم أن يصرفهم ذلك عن دينه، وما جاء به، فكل نفس ذائقة الموت، وما بعث محمد ﷺ إليهم ليخلد لا هو، ولا هم، بل ليموتوا على الإسلام والتوحيد، فإن الموت لابد منه، سواء مات رسول الله ﷺ أو بقى، ولهذا وبخهم على رجوع من رجع منهم عن دينه، لما صرخ الشيطان : بأن محمدا قد قتل، فقال : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [آل عمران] والشاكرون : هم الذين عرفوا قدر النعمة، فثبتوا عليها حتى ماتوا، أو قتلوا .

وظهر أثر هذا العتاب، وحكم هذا الخطاب يوم مات رسول الله ﷺ، وارتد من ارتد على عقبيه، وثبت الشاكرون على دينهم فنصرهم الله، وأعزهم، وظفرهم بأعدائهم، وجعل العاقبة لهم .

ثم أخبر سبحانه أنه جعل لكل نفس أجلا لابد أن تستوفيه، ثم تلحق به،

---

(١) فى هـ : «رسول الله»، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك .
(٢) فى هـ : «بل» .

فيرد[١] الناس كلهم حوض المنايا موردا واحدا وإن تنوعت أسبابه، ويصدرون عن موقف القيامة مصادر شتى فريق فى الجنة، وفريق فى السعير .

ثم أخبر سبحانه أن جماعة كثيرة من أنبيائه قتلوا، وقتل معهم أتباع [لهم][٢] كثيرون، فما وهن من بقى منهم لما أصابهم فى سبيله، وما ضعفوا، وما استكانوا، وما وهنوا عند القتل ولا ضعفوا، ولا استكانوا، بل تلقوا الشهادة بالقوة، والعزيمة، والإقدام، فلم يستشهدوا مدبرين مستسلمين[٣] أذلة، بل استشهدوا أعزة، كراما، مقبلين غير مدبرين، والصحيح : أن الآية تتناول الفريقين كليهما .

ثم أخبر سبحانه عما استنصرت[٤] به الأنبياء، وأممهم على قومهم من اعترافهم، وتوبتهم واستغفارهم،وسؤالهم ربهم أن يثبت أقدامهم،وأن ينصرهم على أعدائهم، فقال : ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [آل عمران] .

لما علم القوم أن العدو إنما يُدَال عليهم بذنوبهم، وأن الشيطان إنما يستزلهم، ويهزمهم بها، وأنها نوعان : تقصير فى حق، أو تجاوز لحدٍّ، وأن النصرة منوطة[٥] بالطاعة، قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا، وإسرافنا فى أمرنا، ثم علموا أن ربهم تبارك وتعالى إن لم يثبت أقدامهم، وينصرهم، لم يقدروا هم على تثبيت أقدام أنفسهم، ونصرها على أعدائهم فسألوه ما يعلمون أنه بيده دونهم، وأنه إن لم يثبت أقدامهم،

---

(١) فى ق : «فيرداد»، وما أثبتناه من خ ، ك، هـ.
(٢) ليست ق ، ك، هـ ، وما أثبتناه من خ .
(٣) فى هـ : «مستكينين» ، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك.
(٤) فى هـ : «انتصرت» ، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك .
(٥) فى خ : «مقرونة» ، وما أثبتناه من ق ، ك، هـ.

وينصرهم، لم يثبتوا، ولم ينتصروا، فوفوا المقامين[١] حقهما : مقام المقتضى، وهو التوحيد، والالتجاء إليه سبحانه، ومقام إزالة المانع من النصرة وهو الذنوب، والإسراف .

ثم حذرهم سبحانه من طاعة عدوهم، وأخبر أنهم إن أطاعوهم خسروا الدنيا والآخرة، وفى ذلك تعريض بالمنافقين الذين أطاعوا المشركين لما انتصروا، وظفروا يوم أحد .

ثم أخبر أنه سبحانه مولى المؤمنين، وهو خير الناصرين، فمن والاه فهو المنصور.

ثم أخبرهم أنه سيلقى فى قلوب أعدائهم الرعب الذى يمنعهم من الهجوم عليهم والإقدام على حربهم، وأنه يؤيد حزبه بجند من الرعب ينتصرون به على أعدائه[٢]، وذلك الرعب بسبب ما فى قلوبهم من الشرك بالله، وعلى قدر الشرك يكون الرعب، فالمشرك بالله أشد شىء خوفا، ورعبا، والذين آمنوا ولم يلبسوا الإيمان[٣] بالشرك لهم الأمن، والهدى، والفلاح، والمشرك له الخوف، والضلال، والشقاء .

ثم أخبرهم أنه صدقهم وعده فى نصرتهم على عدوهم وهو الصادق الوعد، وأنهم لو استمروا على الطاعة، ولزوم أمر الرسول؛ لاستمرت نصرتهم، ولكن انخلعوا عن الطاعة وفارقوا مركزهم، فانخلعوا عن عصمة الطاعة، ففارقتهم النصرة، فصرفهم[٤] عن عدوهم عقوبة، وابتلاء، وتعريفا لهم بسوء عواقب المعصية، وحسن عاقبة الطاعة .

---

(١) فى هـ : «المنافقين»، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك .
(٢) فى هـ : «أعدائهم»، وما أثبتناه من خ ،ق ، ك.
(٣) فى خ : «إيمانهم»، وما أثبتناه من ق ، ك، هـ .
(٤) فى هـ : «تصرفهم»، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك.

ثم أخبر أنه عفا عنهم بعد ذلك كله، وأنه ذو فضل على عباده المؤمنين . قيل للحسن : كيف يعفو عنهم وقد سلط عليهم أعداءهم حتى قتلوا منهم من قتلوا، ومثلوا بهم، ونالوا منهم من نالوه؟ فقال : لولا عفوه عنهم لاستأصلهم، ولكن بعفوه [عنهم][(١)] دفع عنهم عدوهم بعد أن كانوا مجتمعين[(٢)] على استئصالهم .

ثم ذكرهم بحالهم وقت الفرار مُصْعِدين أى : جادين فى الهرب، والذهاب فى الأرض، أو صاعدين فى الجبل لا يلوون على نبيهم، ولا أصحابهم، والرسول يدعوهم فى أخراهم : إلىَّ عباد الله، أنا رسول الله؛ فأثابهم بهذا الهرب والفرار غما بعد غم : غم الهزيمة والكسرة، وغم صرخة الشيطان [فيهم][(٣)] بأن محمدا قد قتل .

وقيل : جازاكم غما بما غممتم رسوله بفراركم عنه، وأسلمتموه إلى عدوه، فالغم الذى حصل لكم جزاء على الغم الذى أوقعتموه بنبيه .

والقول الأول أظهر لوجوه :

أحدها: أن قوله: ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ [آل عمران : ١٥٣] تنبيه على حكمة هذا الغم بعد الغم، وهو أن ينسيهم الحزن على ما فاتهم من الظفر، وعلى ما أصابهم من الهزيمة والجراح، فنسوا بذلك السلب، وهذا إنما يحصل بالغم الذى يعقبه غم آخر .

الثانى : أنه مطابق للواقع، فإنه حصل لهم غم فوات الغنيمة، ثم أعقبه غم الهزيمة، ثم غم الجراح التى أصابتهم[(٤)]، ثم غم القتل، ثم غم سماعهم أن رسول الله ﷺ قد قتل، ثم غم ظهور أعدائهم على الجبل فوقهم، وليس المراد غمين اثنين

---

(١) ليست فى خ ، ق ، ك وما أثبتناه من هـ .
(٢) فى هـ : «مجمعين»، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك .
(٣) ليست فى خ ، ق ،ك ، وما أثبتناه من هـ .
(٤) فى هـ : «الذى أصابهم»، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك.

خاصة، بل غما متتابعا لتمام الابتلاء والامتحان .

الثالث : أن قوله «بغم» من تمام الثواب، لا أنه سبب [جزاء][١] الثواب، والمعنى : أثابكم غما متصلا بغم جزاء على ما وقع منهم من الهرب[٢] وإسلامهم نبيهم ﷺ وأصحابهم وترك استجابتهم له، وهو يدعوهم، ومخالفتهم له فى لزوم مركزهم[٣]، وتنازعهم فى الأمر وفشلهم، وكل واحد من هذه الأمور يوجب غما يخصه، فترادفت عليهم الغموم كما ترادفت منهم أسبابها، وموجباتها، ولولا أن تداركهم بعفوه لكان أمرا[٤] آخر، ومن لطفه بهم، ورأفته [ورحمته][٥] أن هذه الأمور التى صدرت منهم كانت من موجبات الطباع وهى [من][٦] بقايا النفوس التى تمنع من النصرة المستقرة، فقيض لهم بلطفه أسبابا أخرجها من القوة إلى الفعل، فترتب عليها آثارها المكروهة، فعلموا حينئذ أن التوبة منها، والاحتراز من أمثالها، ودفعها بأضدادها أمر متعين، لا يتم لهم الفلاح، والنصرة الدائمة المستقرة إلا به، فكانوا أشد حذرا بعدها، ومعرفة بالأبواب التى دخل عليهم منها .

وربما صَحَّتِ الأجسام بالعلل

ثم إنه سبحانه تداركهم برحمته، وخفف عنهم ذلك الغم وغَيَّبه عنهم بالنعاس الذى أنزله عليهم أمنا منه، ورحمة، والنعاس فى الحرب علامة النصرة والأمن، كما أنزله عليهم يوم بدر، وأخبر أن من لم يصبه ذلك النعاس، فهو ممن أهمته[٧] نفسه لا دينه، ولا نبيه، ولا أصحابه، وأنهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية .

---

(١) ليست فى خ ،ق، ك ، وما أثبتناه من هـ .
(٢) فى هـ : «الهروب» ، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك .
(٣) فى خ : «مراكزهم» ، وما أثبتناه من ق ، ك ، هـ .
(٤) فى خ : «أمر»، وما أثبتناه من ق ، ك ، هـ.
(٥) ليست فى ق ،ك ، هـ ، وما أثبتناه من خ.
(٦) ليست فى خ، ق ،ك ، وما أثبتناه من هـ .
(٧) فى خ : «همته»، وما أثبتناه من ق ، ك ، هـ.

وقد فُسر هذا الظن الذى لا يليق بالله بأنه سبحانه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل، وأنه يسلمه[١] للقتل، وفسر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقضاء الله وقدره، ولا حكمة له فيه، ففسر بإنكار الحكمة وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله، ويظهره على الدين كله، وهذا هو ظن السوء الذى ظنه المنافقون، والمشركون به سبحانه وتعالى فى «سورة الفتح» حيث يقول: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦﴾ [الفتح].

وإنما كان هذا ظن السوء، وظن الجاهلية وهو الظن المنسوب إلى أهل الجهل، وظن غير الحق؛ لأنه ظن غير ما يليق بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، وذاته المبرأة من كل عيب وسوء، بخلاف ما يليق بحكمته وحمده، وتفرده بالربوبية، والإلهية، وما يليق بوعده الصادق الذى لا يخلفه، وبكلمته التى سبقت لرسله أنه ينصرهم، ولا يخذلهم، ولجنده بأنهم هم الغالبون، فمن ظن به بأنه لا ينصر رسوله، ولا يتم أمره، ولا يؤيده، ويؤيد حزبه، ويعليهم، ويظفرهم بأعدائهم[٢] ويظهرهم عليهم وأنه لا ينصر دينه، وكتابه، وأنه يُدِيل الشرك على التوحيد، والباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها التوحيد، والحق اضمحلالا لا يقوم بعده أبدا، فقد ظن بالله ظن السوء ونسبه إلى خلاف ما يليق بكماله، وجلاله، وصفاته، ونعوته، فإن حمده، وعزته، وحكمته، وإلهيته تأبى ذلك، وتأبى أن يذل حزبه، وجنده، وأن تكون النصرة المستقرة، والظفر الدائم لأعدائه المشركين به العادلين به، فمن ظن به ذلك فما عرفه، ولا عرف أسماءه، ولا صفاته وكماله.

وكذلك من أنكر أن يكون ذلك بقضائه، وقدره، فما عرفه، ولا عرف ربوبيته،

---

(١) فى خ: «سيسلمه»، وما أثبتناه من ق، ك، هـ.
(٢) فى هـ: «بأعدائه»، وما أثبتناه من خ، ق، ك.

وملكه وعظمته .

وكذلك من أنكر أن يكون قدر ما قدره من ذلك، وغيره لحكمة بالغة، وغاية محمودة يستحق الحمد عليها، وأن ذلك إنما صدر عن مشيئة مجردة عن حكمة وغاية مطلوبة هى أحب إليه من فوتها[١]، وأن تلك الأسباب المكروهة المفضية إليها لا يخرج تقديرها[٢] عن الحكمة لإفضائها[٣] إلى ما يحب وإن كانت مكروهة له فما قدرها سدى، ولا شاءها عبثا، ولا خلقها باطلا ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص] .

وأكثر الناس يظنون بالله غير الحق ظن السوء فيما يختص بهم، وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم عن ذلك إلا من عرف الله، وعرف أسماءه، وصفاته، وعرف موجب حمده وحكمته، فمن قنط من رحمته، وأيس من روحه، فقد ظن به ظن السوء .

ومن جوز عليه أن يعذب أولياءه مع إحسانهم، وإخلاصهم، ويسوى بينهم وبين أعدائه، فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أنه يترك خلقه سُدًى معطلين عن الأمر، والنهى، ولا يرسل إليهم رسله، ولا ينزل عليهم[٤] كتبه، بل يتركهم هملا كالأنعام، فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن أنه لن يجمعهم بعد موتهم للثواب والعقاب فى دار يجازى المحسن فيها بإحسانه، والمسيء بإساءته، ويبين لخلقه حقيقة ما اختلفوا فيه، ويظهر للعالمين كلهم صدقه وصدق رسله، وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين، فقد ظن به ظن السوء .

---

(١) فى ق :«فوقها» ، وما أثبتناه من خ ، ك ، هـ.
(٢) فى ق : «بقدرها» ، وما أثبتناه من خ ، ك ، هـ.
(٣) فى خ : «لانضمامها» ، وما أثبتناه من ق ، ك ، هـ.
(٤) فى خ: «إليهم»، وما أثبتناه من ق ، ك ، هـ.

ومن ظن أنه يُضَيِّعُ عليه عمله الصالح الذى عمله خالصا لوجهه على امتثال أمره ويبطله عليه بلا سبب من العبد، أو أنه يعاقبه بما لا صنع له فيه، ولا اختيار له ولا قدرة ولا إرادة [له][(١)] فى حصوله بل يعاقبه على فعله هو سبحانه به، أو ظن به أنه يجوز عليه أن يؤيد أعداءه الكاذبين عليه بالمعجزات التى يؤيد بها أنبياءه، ورسله، ويجريها على أيديهم يضلون بها عباده، وأنه يحسن منه كل شىء حتى تعذيب[(٢)] من أفنى عمره فى طاعته، فيخلده فى الجحيم أسفل السافلين، وينعم من استنفد عمره فى عداوته، وعداوة رسله، ودينه، فيرفعه إلى أعلى عليين، وكلا الأمرين عنده فى الحسن سواء، ولا يعرف امتناع أحدهما، ووقوع الآخر إلا بخبر صادق، وإلا فالعقل لا يقضى بقبح أحدهما، وحسن الآخر، فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به [أنه][(٣)] أخبر عن نفسه، وصفاته، وأفعاله بما ظاهره باطل، وتشبيه وتمثيل، وترك الحق لم يخبر به، وإنما رمز إليه رموزا بعيدة، وأشار إليه إشارات مُلْغِزَة لم يصرح به، وصرح دائما بالتشبيه، والتمثيل، والباطل، وأراد من خلقه أن يتعبوا[(٤)] أذهانهم، وقواهم، وأفكارهم، فى تحريف كلامه عن مواضعه، وتأويله على غير تأويله، ويتطلبوا له وجوه الاحتمالات المستكرهة، والتأويلات التى هى بالألغاز والأحاجى أشبه منها بالكشف، والبيان، وأحالهم فى معرفة أسمائه، وصفاته على عقولهم، وآرائهم لا على كتابه، بل أراد منهم ألا يحملوا كلامه على ما يعرفون من خطابهم ولغتهم، مع قدرته على أن يصرح لهم بالحق الذى ينبغى التصريح به، ويريحهم من الألفاظ التى توقعهم فى اعتقاد الباطل، فلم يفعل، بل سلك بهم خلاف طريق الهدى، والبيان، فقد ظن به ظن السوء .

---

(١) ليست فى خ ، ق، ك، وما أثبتناه من هـ .
(٢) فى هـ : «يعذب» ، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك.
(٣) ليست فى ق ، ك ، هـ ، وما أثبتناه من خ .
(٤) فى هـ : «يبعثوا» ، وما أثبتناه من خ، ق ، ك.

فإنه إن قال : إنه غير قادر على التعبير عن الحق باللفظ الصريح الذى عبر به هو وسلفه، فقد ظن بقدرته العجز .

وإن قال : إنه قادر ولم يبين، وعدل عن البيان، وعن التصريح بالحق إلى ما يوهم بل يوقع فى الباطل المحال والاعتقاد الفاسد، فقد ظن بحكمته، ورحمته ظن السوء، وظن أنه [هو][(١)] وسلفه عبروا عن الحق بصريحه دون الله ورسوله، وأن الهدى والحق فى كلامهم، وعباراتهم، وأما كلام الله فإنما يؤخذ من ظاهره التشبيه، والتمثيل، والضلال، وظاهر كلام المتهوكين الحيارى هو الهدى والحق، فهذا من أسوأ الظن بالله، فكل هؤلاء من الظانين بالله ظن السوء، ومن الظانين به غير الحق ظن الجاهلية .

ومن ظن به أن يكون فى ملكه ما لا يشاء، ولا يقدر على إيجاده، وتكوينه، فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أنه كان معطلا من الأزل إلى الأبد عن أن يفعل، ولا يوصف حينئذ بالقدرة على الفعل، ثم صار قادرا عليه بعد أن لم يكن قادرا، فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أنه لا يسمع، ولا يبصر، ولا يعلم الموجودات، ولا عدد السموات، [والأرض][(٢)] ولا النجوم، ولا بنى آدم، وحركاتهم، وأفعالهم، ولا يعلم شيئا من الموجودات فى الأعيان، فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أنه لا سمع له، ولا بصر، ولا علم [له][(٣)]، ولا إرادة، ولا كلام يقول به، وأنه لم[(٤)] يكلم أحدا من الخلق، ولا يتكلم أبدا، ولا قال، ولا يقول، ولا له أمر، ولا نهى يقوم به، فقد ظن به ظن السوء .

---

(١) ليست فى ق ، ك ، هـ ، وما أثبتناه من خ .
(٢) ليست فى خ ، ك ، هـ ، وما أثبتناه من ق .
(٣) ليست فى ق ، ك ، هـ ، وما أثبتناه من خ .
(٤) فى هـ : «ما»، وما أثبتناه من ق ، ك ، هـ .

ومن ظن به أنه [ليس][(١)] فوق سمواته على عرشه بائنا من خلقه، وأن نسبة ذاته تبارك وتعالى إلى[(٢)] عرشه كنسبتها إلى أسفل سافلين، وإلى الأمكنة التى يرغب عن ذكرها، وأنه أسفل كما أنه أعلى، [وأن من قال : سبحان ربى الأسفل كمن قال سبحان ربى الأعلى][(٣)] ، فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه .

ومن ظن به أنه يحب الكفر، والفسوق، والعصيان، ويحب الفساد كما يحب الإيمان، والبر، والطاعة، والإصلاح، فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أنه لا يحب، ولا يرضى، ولا يغضب، ولا يسخط، ولا يوالى، ولا يعادى، ولا يقرب من أحد من خلقه، ولا يقرب منه أحد، وأن ذوات الشياطين فى القرب من ذاته كذوات الملائكة المقربين، وأوليائه المفلحين، فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أنه يسوى بين المتضادين، أو يفرق بين المتساويين من كل وجه، أو يحبط طاعات العمر المديد الخالصة الصواب بكبيرة واحدة تكون بعدها، فيخلد فاعل تلك الطاعات فى الجحيم أبد الآبدين بتلك الكبيرة، ويحبط بها جميع طاعاته، ويخلده فى العذاب كما يخلد من لا يؤمن به طرفة عين، واستنفد ساعات عمره فى مساخطه، ومعاداة رسله ودينه، فقد ظن به ظن السوء .

وبالجملة، فمن ظن به خلاف ما وصف به نفسه، ووصفه به رسله، أو عَطَّلَ حقائق ما وصف به نفسه، ووصفته به رسله، فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن [به][(٤)] أن له ولدا، أو شريكا، أو أن أحدا يشفع عنده بدون إذنه، أو أن بينه وبين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إليه، أو أنه نصب لعباده أولياء من

---

(١) ساقطة من المطبوع . وبدونها يتغير المعنى ، بما لا يجوز فى حقه عز وجل .
(٢) فى خ : «على»، وما أثبتناه من ق ، ك ، هـ .
(٣) ساقط من المطبوع .
(٤) ليست فى خ ، ك ، هـ ، وما أثبتناه من ق .

دونه يتقربون بهم إليه، ويتوسلون بهم إليه ويجعلونهم وسائط بينهم، وبينه، فيدعونهم [ويحبونهم كحبه][(١)]، ويخافونهم ويرجونهم، فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه.

ومن ظن به أنه ينال ما عنده بمعصيته، ومخالفته كما يناله بطاعته، والتقرب إليه، فقد ظن به خلاف حكمته، وخلاف موجب أسمائه، وصفاته، وهو من ظن السوء.

ومن ظن به أنه إذا ترك لأجله شيئا لم يعوضه خيرا منه، أو من فعل لأجله شيئا لم يعطه أفضل منه، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه يغضب على عبده، ويعاقبه، ويحرمه بغير جرم، ولا سبب من العبد، إلا بمجرد المشيئة، ومحض الإرادة، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه إذا صدقه فى الرغبة، والرهبة، وتضرع إليه، وسأله، واستعان به، وتوكل عليه أنه يخيبه، ولا يعطيه ما سأله، فقد ظن به ظن السوء، وظن به خلاف ما هو أهله.

ومن ظن به، أنه يثيبه إذا عصاه بما[(٢)] يثيبه به إذا أطاعه، وسأله ذلك فى دعائه، فقد ظن به خلاف ما تقتضيه حكمته، وحمده، وخلاف ما هو أهله، وما لا يفعله.

ومن ظن به أنه إذا أغضبه، وأسخطه، وأوضع فى معاصيه، ثم اتخذ من دونه وليا، ودعا من دونه ملكا، أو بشرا حيا، أو ميتا يرجو بذلك أن ينفعه عند ربه، ويخلصه من عذابه، فقد ظن به ظن السوء، بل وذلك زيادة فى بعده من الله، وفى عذابه.

ومن ظن به أنه يسلط على رسوله محمد ﷺ أعداءه تسليطا مستقرا دائما فى حياته، وفى مماته، وابتلاه بهم لا يفارقونه، فلما مات استبدوا بالأمر دون وصية، أهل

---

(١) ليست فى خ، ق، ك، وما أثبتناه من هـ.
(٢) فى هـ: «كما»، وما أثبتناه من خ، ق، ك.

بيته وسلبوهم حقهم، وأذلوهم، وكانت العزة، والغلبة، والقهر لأعدائه، وأعدائهم دائما من غير جرم، ولا ذنب لأوليائه، وأهل الحق، وهو يرى قهرهم لهم، وغصبهم إياهم حقهم، وتبديلهم دين نبيهم، وهو يقدر على نصرة أوليائه، وحزبه، وجنده، ولا ينصرهم، ولا يديلهم، بل يديل أعداءهم عليهم أبدا، أو أنه لا يقدر على ذلك، بل حصل هذا بغير قدرته، ولا مشيئته، ثم جعل المبدلين لدينه مضاجعيه فى حفرته تسلم أمته عليه، وعليهم كل وقت، كما تظنه الرافضة، فقد ظن به أقبح الظن، وأسوأه، سواء قالوا : إنه قادر على أن ينصرهم، ويجعل لهم الدولة، والظفر، أو أنه غير قادر على ذلك، فهم قادحون فى قدرته، أو فى حكمته، وحمده، وذلك من ظن السوء به .

ولا ريب أن الرب الذى فعل هذا بغيض إلى من ظن به ذلك غير محمود عندهم، وكان الواجب أن يفعل خلاف ذلك لكنَ رفَوْا[1] هذا الظن الفاسد بخرق أعظم منه، واستجاروا من الرَّمْضَاء بالنار، فقالوا : لم يكن هذا بمشيئة الله، ولا له قدرة على دفعه، ونصر أوليائه، فإنه لا يقدر على أفعال عباده، ولا هى داخلة تحت قدرته، فظنوا به ظن إخوانهم المجوس، والثنوية بربهم وكل مبطل، وكافر ومبتدع، مقهور مستذل، فهو يظن بربه هذا الظن وأنه أولى بالنصر، والظفر، والعلو من خصومه .

فأكثر الخلق بل كلهم إلا من شاء الله يظنون بالله غير الحق ظن السوء، فإن غالب بنى آدم يعتقد أنه مبخوس الحق ناقص الحظ، وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله، ولسان حاله يقول : ظلمنى ربى، ومنعنى ما أستحقه، ونفسه تشهد عليه بذلك، وهو بلسانه ينكره، ولا يتجاسر على التصريح به .

---

(١) أى : أصلحوا .

ومن فتش نفسه، وتغلغل فى معرفة دفائنها، وطواياها[١] رأى ذلك فيها كامنا كمون النار فى الزناد، فاقدح زناد من شئت ينبئك شراره عما فى زناده، ولو فتشت من فتشته لرأيت عنده تَعَتُّبا على القدر، وملامة له، واقتراحا عليه[٢] خلاف ما جرى به، وأنه[٣] كان ينبغى أن يكون كذا، وكذا، فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك هل أنت سالم من ذلك .

فإن تَنْجُ منها تنْجُ[٤] من ذى عظيمة وإلا فإنى لا إخالك ناجيا[٥]

فليعتبر[٦] اللبيب الناصح لنفسه بهذا الموضع، وليتب إلى الله وليستغفره كل وقت من ظنه بربه ظن السوء، وليظن السوء بنفسه التى هى مأوى كل سوء، ومنبع كل شر، المركبة على الجهل، والظلم، فهى أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، وأرحم الراحمين، الغنى الحميد، الذى له الغنى التام، والحمد التام، والحكمة التامة، المنزه عن كل سوء فى ذاته، وصفاته، وأفعاله، وأسمائه، فذاته لها الكمال المطلق من كل وجه، وصفاته كذلك وأفعاله كلها حكمة، ومصلحة، ورحمة وعدل، وأسماؤه كلها حسنى .

فلا تظنن بربك ظن سوء فإن الله أولى بالجميل
ولا تظنن بنفسك قط خيرا وكيف بظالم جَانٍ جهول
وقل يا نفس مأوى كل سوء أيرجى الخير من ميت بخيل
وظن بنفسك السوآى تجدها كذاك وخيرها كالمستحيل
وما بك من تُقًى فيها وخير فتلك مواهب الرب الجليل

---

(١) فى خ : «ضوامرها» ، وما أثبتناه من ق ، ك ، هـ.
(٢) فى هـ : «له» ، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك .
(٣) فى خ : «ضوامرها» ، وما أثبتناه من ق ، ك ، هـ .
(٤) فى ق : «فإن أنت تنج تنج» وفى خ : «فإن تنج منه تنج»، وما أثبتناه من ك ، هـ .
(٥) فى خ : «فإنى إخالك لا إخالك ناجيا» ، وما أثبتناه من ق ، ك ، هـ.
(٦) فى خ : «فليعتن» ، وما أثبتناه من ق ، ك ، هـ.

ولـيس بهـا ولا منهـا ولكـن مـــن الـــرحمن فاشـــكر للـــدليل

والمقصود ما ساقنا إلى هذا الكلام من قوله تعالى : ﴿ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾[آل عمران : ١٥٤].

ثم أخبر عن الكلام الذى صدر عن ظنهم الباطل وهو قولهم : ﴿ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ﴾ [آل عمران : ١٥٤]، وقولهم : ﴿ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ﴾ [آل عمران : ١٥٤]، فليس مقصودهم بالكلمة الأولى والثانية إثبات القدر، ورد الأمر كله لله[(١)]، ولو كان ذلك مقصودهم لما ذموا عليه، ولما حسن الرد عليه، بقوله : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾[آل عمران : ١٥٤]، ولا كان مصدر هذا الكلام ظن الجاهلية.

ولهذا قال غير واحد من [السلف][(٢)] المفسرين : إن ظنهم الباطل ها هنا : هو التكذيب بالقدر، وظنهم أن الأمر لو كان إليهم، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه تبعا لهم يسمعون منهم لما أصابهم القتل، ولكان النصر، والظفر لهم، فأكذبهم الله عز وجل، فى هذا الظن الباطل الذى هو ظن الجاهلية، وهو الظن المنسوب إلى أهل الجهل الذين يزعمون بعد نفاذ القضاء والقدر الذى لم يكن بد من نفاذه أنهم كانوا قادرين على دفعه، وأن الأمر لو كان إليهم لما نفذ القضاء، فأكذبهم الله بقوله : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾.

فلا يكون إلا ما سبق به قضاؤه، وقدره، وجرى به علمه[(٣)]، وكتابه السابق،

---

(١) فى خ : «إلى الله» ، وما أثبتناه من ق ، ك ، هـ.
(٢) ليست فى خ ، ق ، ك، وما أثبتناه من هـ .
(٣) فى ق: «قلمه» ، وما أثبتناه من خ ، ك ، هـ.

وما شاء الله كان، ولابد، شاء الناس أم أبوا، وما لم يشأ لم يكن، شاء[١] الناس أم لم يشاؤوه، وما جرى عليكم من الهزيمة والقتل، فبأمره الكونى الذى لا سبيل إلى دفعه سواء كان لكم من الأمر شىء، أو لم يكن لكم، فإنكم لو كنتم فى بيوتكم، وقد كتب القتل على بعضكم لخرج[٢] من كتب عليهم القتل من بيته إلى مضجعه ولابد، سواء كان لهم من الأمر شىء، أو لم يكن، وهذا من أظهر الأشياء إبطالا لقول القدرية النفاة الذين يجوزون أن يقع ما لا يشاؤه الله، وأن يشاء ما لا يقع .

فصل

ثم أخبر سبحانه وتعالى عن حكمة أخرى فى هذا التقدير، وهى ابتلاء ما فى صدورهم، وهو اختبار ما فيها من الإيمان، والنفاق، فالمؤمن لا يزداد بذلك إلا إيمانا وتسليما، والمنافق ومن فى قلبه مرض لا بد أن يظهر ما فى قلبه على جوارحه ولسانه .

ثم ذكر حكمة أخرى : وهو تمحيص ما فى قلوب المؤمنين، وهو تخليصه، وتنقيته، وتهذيبه، فإن القلوب يخالطها تغلبات الطباع، وميل النفوس، وحكم العادة، وتزيين الشيطان واستيلاء الغفلة ما يضاد ما أودع فيها من الإيمان، والإسلام، والبر، والتقى، فلو تركت فى عافية دائمة مستمرة لم تتخلص من هذا المخالط[٣]، ولم تتمحص منه، فاقتضت حكمة العزيز الرحيم أن قيض لها من المحن، والبلايا، ما يكون كالدواء الكريه لمن عرض له [داء][٤] إن لم يتداركه طبيبه،

---

(١) فى خ، هـ : «شاءه»، وما أثبتناه من ق ، ك .
(٢) فى خ : «فخرج» ، وما أثبتناه من ق ، ك ، هـ.
(٣) فى هـ : «هذه المخالطة» ، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك.
(٤) ليست فى ق ، ك ، وما أثبتناه من خ، هـ .

بإزالته، وتنقيته[١] من جسده[٢]، وإلا خيف عليه منه[٣] الفساد، والهلاك .

فكانت نعمته سبحانه عليهم بهذه الكسرة، والهزيمة، وقتل من قتل منهم تعادل نعمته عليهم بنصرهم، وتأييدهم وظفرهم بعدوهم، فله عليهم النعمة التامة فى[٤] هذا وهذا .

ثم أخبر سبحانه عن تولى من تولى من المؤمنين الصادقين فى ذلك اليوم، وأنه بسبب كسبهم، وذنوبهم، فاستزلهم الشيطان بسبب تلك الأعمال، حتى تولوا، فكانت أعمالهم جندا عليهم وازداد بها عدوهم قوة، فإن الأعمال جند للعبد، وجند عليه، ولابد، فللعبد كل وقت سرية من نفسه تهزمه، أو تنصره، فهو يمد عدوه بأعماله من حيث يظن أنه يقاتله بها، ويبعث إليه سرية تغزوه مع عدوه من حيث يظن أنه يغزو عدوه، فأعمال العبد تسوقه قسرا إلى مقتضاها من الخير والشر، والعبد لا يشعر، أو يشعر، ويتعامى، ففرار الإنسان من عدوه، وهو يطيقه، إنما هو بجند من عمله، بعثه له الشيطان، واستزله به .

ثم أخبر سبحانه أنه عفا عنهم؛ لأن هذا الفرار لم يكن عن نفاق ولا شك، وإنما كان عارضا عفا الله عنه، فعادت شجاعة الإيمان وثباته إلى مركزها، ونصابها .

ثم كرر عليهم سبحانه أن هذا الذى أصابهم إنما أتوا فيه من قبل أنفسهم، وبسبب[٥] أعمالهم، فقال : ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران] وذكر هذا

(١) فى هـ : «بنفيه» ، وما أثبتناه من خ ،ق ، ك .
(٢) فى ق : «من هو فى جسده» ، وما أثبتناه من خ ، ك ، هـ.
(٣) فى ق : «من» ، وما أثبتناه من خ، ك ، هـ.
(٤) فى هـ : «من»، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك.
(٥) فى خ : «لسبب» ، وما أثبتناه من ق ، ك ، هـ.

بعينه فيما هو أعم من ذلك فى [1] السور المكية فقال : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى]، وقال : ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾[النساء : ٧٩]، فالحسنة، والسيئة ها هنا: النعمة، والمصيبة، فالنعمة مَنٌّ من الله منَّ بها عليك، والمصيبة إنما نشأت من قبل نفسك وعملك، فالأول فضله، والثانى عدله، والعبد يتقلب بين فضله وعدله، جار عليه فضله، ماض فيه حكمه، عدل فيه قضاؤه .

وختم الآية الأولى بقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾بعد قوله : ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾إعلاما لهم بعموم قدرته مع عدله وأنه عادل قادر، وفى ذلك إثبات القدر، والسبب، فذكر السبب، وأضافه إلى نفوسهم، وذكر عموم القدرة وأضافها إلى نفسه، فالأول ينفى الجبر، والثانى ينفى القول بإبطال القدر، فهو يشاكل قوله : ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [التكوير] .

وفى ذكر قدرته ها هنا نكتة لطيفة، وهى أن هذا الأمر بيده، وتحت قدرته، وأنه هو الذى لو شاء لصرفه عنكم، فلا تطلبوا كشف أمثاله من غيره، ولا تتكلوا على سواه، وكشف هذا المعنى، وأوضحه كل الإيضاح بقوله : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١٦٦] وهو الإذن الكونى القدرى لا الشرعى الدينى، كقوله فى السحر : ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ١٠٢] .

ثم أخبر عن حكمة هذا التقدير، وهى أن يعلم المؤمنين من المنافقين علم عيان

---

(١) فى هـ : «من»، وما أثبتناه من خ، ق ، ك .

ورؤية، يتميز فيه أحد الفريقين من الآخر تميزًا ظاهرا، وكان من حكمة هذا التقدير تكلم المنافقين بما فى نفوسهم، فسمعه المؤمنون، وسمعوا رد الله عليهم، وجوابه لهم، وعرفوا مواد النفاق، وما يؤول إليه، وكيف يحرم صاحبه سعادة الدنيا، والآخرة، ويعود عليه بفساد الدنيا والآخرة، فلله كم من حكمة فى ضمن هذه القضية بالغة، ونعمة على المؤمنين سابغة، وكم فيها من تحذير، وتخويف، وإرشاد، وتنبيه، وتعريف بأسباب الخير، والشر وما لهما، وعاقبتهما .

ثم عزى نبيه ﷺ وأولياءه، عمن قتل منهم فى سبيله أحسن تعزية، وألطفها وأدعاها إلى الرضا بما قضاه[1] لها فقال : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [آل عمران]، فجمع لهم إلى الحياة الدائمة منزلة القرب منه، وأنهم عنده، وجريان الرزق المستمر عليهم،وفرحهم بما آتاهم من فضله وهو فوق الرضا بل هو كمال الرضا، واستبشارهم بإخوانهم الذين باجتماعهم بهم يتم سرورهم، ونعيمهم، واستبشارهم بما يجدد لهم كل وقت من نعمته، وكرامته .

وذكرهم سبحانه فى أثناء هذه المحنة بما هو من أعظم مننه، ونعمه عليهم التى إن قابلوا بها كل محنة تنالهم وبلية، تلاشت فى جنب هذه المنة، والنعمة، ولم يبق لها أثر البتة، وهى منته عليهم بإرسال رسول من أنفسهم إليهم يتلو عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب، والحكمة، وينقذهم من الضلال الذى كانوا فيه قبل إرساله إلى الهدى، ومن الشقاء إلى الفلاح، ومن الظلمة إلى النور، ومن الجهل إلى العلم .

---

(١)فى ق : «قضى» ، وما أثبتناه من خ ، ك ، هـ.

فكل بلية ومحنة تنال العبد بعد حصول هذا الخير العظيم له أمر يسير جدا فى جنب الخير الكثير، كما ينال الناس بأذى المطر فى جنب ما يحصل لهم به من الخير، فأعلمهم أن سبب المصيبة من عند أنفسهم؛ ليحذروا، وأنها بقضائه، وقدره، ليوحدوا، ويتكلوا، ولا يخافوا غيره، وأخبرهم بما له فيها من الحِكَم لئلا يتهموه فى قضائه، وقدره، وليتعرف إليهم بأنواع أسمائه، وصفاته، وسلاهم بما أعطاهم مما هو أجل قدرا، وأعظم خطرا مما فاتهم من النصر، والغنيمة، وعزاهم عن قتلاهم بما نالوه من ثوابه، وكرامته؛ لينافسوهم فيه، ولا يحزنوا عليهم، فله الحمد كما هو أهله، وكما ينبغى لكرم وجهه، وعِزِّ جلاله .

فصل

ولما انقضت الحرب انكفأ المشركون، فظن المسلمون أنهم قصدوا المدينة، لأخذ الذرارى، والأموال، فشق ذلك عليهم، فقال النبى ﷺ [لعلى بن أبى طالب ﷺ : «اخرج فى آثار القوم، فانظر ماذا يصنعون، وماذا يريدون، فإن هم جنبوا الخيل، وامتطوا الإبل، فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل، وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة، فوالذى نفسى بيده، لئن أرادوها لأسيرن إليهم، ثم لأناجزنهم فيها» قال على : فخرجت فى آثارهم أنظر ماذا يصنعون، فجنبوا الخيل، وامتطوا الإبل، ووجهوا إلى مكة][1] .

ولما عزموا على الرجوع إلى مكة أشرف على المسلمين أبو سفيان، ثم ناداهم : موعدكم الموسم ببدر، فقال النبى ﷺ : «قولوا : نعم قد فعلنا» قال أبو سفيان : فذلك الموعد .

---

(١) فى ق : «والذى نفسى بيده لقد سومت لهم حجارة لو أصبحوا لكانوا كأمس الذاهب» ، وما أثبتناه من خ ، ك ، هـ.

ثم انصرف هو وأصحابه، فلما كان ببعض الطريق تلاوموا فيما بينهم، وقال بعضهم لبعض : لم تصنعوا شيئا أصبتم شوكتهم وحدّهم، ثم تركتموهم، وقد بقى منهم رؤوس يجتمعون[١] لكم، فارجعوا حتى نستأصل شأفتهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنادى فى الناس، وندبهم إلى المسير إلى لقاء عدوهم، وقال : «لا يخرج معنا إلا من شهد القتال»، فقال له عبد الله بن أبى : أركب معك؟ قال : «لا»، فاستجاب له المسلمون على ما بهم من القرح الشديد، والخوف، وقالوا : سمعا وطاعة .

واستأذنه جابر بن عبد الله، وقال : يا رسول الله، إنى أحب ألا تشهد مشهدا إلا كنت معك، وإنما خَلَّفَنى أبى على بناته، فأذن لى أسير[٢] معك، فأذن له، فسار رسول الله ﷺ والمسلمون معه، حتى بلغوا حمراء الأسد، وأقبل مَعْبَدُ بن أبى معبد الخزاعى إلى رسول الله ﷺ ، [فأسلم][٣]، فأمره أن يلحق بأبى سفيان، فَيُخذِّله .

فلحقه بالروحاء، ولم يعلم بإسلامه، فقال : ما وراءك يا معبد؟ فقال : محمد، وأصحابه قد تحرقوا عليكم، وخرجوا فى جمع لم يخرجوا فى مثله، وقد ندم من كان تخلف عنهم من أصحابهم، فقال: ما تقول؟ فقال : ما أرى أن ترتحل حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأَكَمَة، فقال أبو سفيان : والله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلهم، قال : فلا تفعل، فإنى لك ناصح .

فرجعوا على أعقابهم إلى مكة، ولقى أبو سفيان بعض المشركين يريد المدينة، فقال : هل لك أن تبلغ محمدا رسالة وأوْقِر لك راحلتك زبيبا إذا أتيت إلى مكة[٤]؟ قال : نعم، قال : أبلغ محمدا أنا قد أجمعنا الكرة لنستأصله، ونستأصل أصحابه فلما بلغهم قوله قالوا : ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ

---

(١) فى هـ : «يجمعون»، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك .
(٢) فى خ : «أسر» ، وما أثبتناه من ق ، ك ، هـ.
(٣) ليست فى خ ، ق ، ك ، وما أثبتناه من هـ .
(٤) فى هـ : «أتيت مالك إلى مكة» ، وما أثبتناه من خ، ق ، ك .

يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾ [آل عمران] [(١)].

فصل

وكانت وقعة أحد يوم السبت فى سابع [(٢)] شوال سنة ثلاث كما تقدم، فرجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، فأقام بها بقية شوال، وذا القعدة، وذا الحجة [(٣)]، والمحرم.

فلما استهل هلال المحرم بلغه أن طلحة، وسلمة ابنى [(٤)] خُوَيْلد قد سارا فى قومهما، ومن أطاعهما يدعوان بنى أسد بن خُزَيْمة إلى حرب رسول الله ﷺ، فبعث أبا سلمة، وعقد له لواء، وبعث معه مائة وخمسين رجلا من الأنصار والمهاجرين، فأصابوا إبلا، وشاء، ولم يلقوا كيدا، فانحدر أبو سلمة بذلك كله إلى المدينة.

فصل

فلما كان خامس المحرم، بلغه أن خالد بن سفيان [بن نُبَيْح] [(٥)] الهذلى قد جمع له الجموع، فبعث إليه عبد الله بن أُنَيْس، فقتله. قال عبد المؤمن بن خلف: وجاءه برأسه فوضعه بين يديه، فأعطاه عصا، فقال: «هذه آية بينى، وبينك يوم القيامة»، فلما حضرته الوفاة أوصى أن تجعل معه فى أكفانه، وكانت غيبته ثمانى عشرة ليلة، وقدم يوم السبت لسبع بقين من المحرم [(٦)].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣ / ٦٦ ـ ٦٨)، ودلائل النبوة للبيهقى (٣ / ٣١٣ ـ ٣١٧).
(٢) فى خ، ق: «مساء»، وما أثبتناه من ك، هـ.
(٣) فى هـ: «ذو القعدة وذو الحجة»، وما أثبتناه من خ، ق، ك.
(٤) فى هـ: «ابن»، وما أثبتناه من خ، ق، ك.
(٥) ليست فى خ، ق، ك، وما أثبتناه من هـ.
(٦) أحمد (٣ / ٤٩٦)، والطبقات الكبرى لابن سعد (٢ / ٣٩).

[فصل فى بَعْث الرَّجِيع]

فلما كان صفر قدم عليه قوم من عَضَل، والقَارَة، وذكروا أن فيهم إسلاما، وسألوه أن يبعث معهم من يعلمهم الدين، ويقرئهم القرآن، فبعث معهم ستة نفر فى قول ابن إسحاق، وقال البخارى: كانوا عشرة، وأمر عليهم مرثد بن أبى مرثد الغَنَوِىّ[٢]، وفيهم خُبَيْبُ بن عدى، فذهبوا معهم.

فلما كانوا بالرَّجِيع وهو ماء لهُذَيْل بناحية الحجاز، غدروا بهم، واستصرخوا عليهم هذيلا، فجاؤوا حتى أحاطوا بهم، فقتلوا عامتهم، واستأسروا[٣] خبيب بن عدى، وزيد بن الدِّثِنَةِ، فذهبوا بهما فباعوهما بمكة، وكانا قتلا من رؤوسهم يوم بدر، فأما خبيب، فمكث عندهم مسجونا، ثم أجمعوا على قتله، فخرجوا به من الحرم إلى التنعيم، فلما أجمعوا على صلبه قال: دعونى حتى أركع ركعتين، فتركوه فصلاهما، فلما سلم قال: والله لولا أن تقولوا إن ما بى جَزَعٌ، لزدت، ثم قال: اللهم أحْصِهم عددا، واقتلهم بِدَدًا[٤]، ولا تبق منهم أحدا، ثم قال:

لقد أجمع الأحزاب حولى وألَّبوا ... قبائلهم واستجمعوا كل مَجْمَع
وكلهم مبدى العداوة جاهد ... على لأنى فى وِثَاق بِمَضْيَع
وقد قربوا أبناءهم ونساءهم ... وقُرِّبتُ من جذع طويل مُمَنَّع
إلى الله أشكو غربتى بعد كربتى ... وما أجمع الأحزاب لى عند مصرعى

---

(١) فى خ: «مريم». والصحيح أنه أمر عاصم بن ثابت كما فى رواية البخارى، وأكد عليه الحافظ ابن حجر فى شرحه للحديث.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٣ / ١٢٤)، والبخارى فى المغازى (٤٠٨٦).

(٣) فى هـ: «استأسروا»، وما أثبتناه من خ، ق، ك.

(٤) بِدَدًا: جمع بُدَّة، وهى الحصة والنصيب، أى: اقتلهم حِصَصا مُقَسَّمة لكل واحد حصته ونصيبه. ويروى بفتح الباء، أى: متفرقين فى القتل واحدًا بعد واحد، من التبديد.

فذا العرش صَبِّرْنى على ما يراد بى ... فقد بَضَّعُوا لحمى وقد يَاسَ[١] مَطْمَعى
وقد خيرونى الكفر والموت دونه ... وقد ذرفت عيناى من غير مدمع
وما بى حِذَارُ الموت إنى لميت ... وإن[٢] إلى ربى مآلى ومرجعى
ولست أبالى حين أقتل مسلما ... على أى شق كان فى الله مضجعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شِلْوٍ مُمَزَّع[٣]
فلست بمُبْدٍ للعدو تَخَشُّعا ... ولا جَزَعًا إنى إلى الله مرجعى

فقال له أبو سفيان : أيسرك أن محمدا عندنا تضرب عنقه، وإنك فى أهلك؟ فقال : والله ما يسرنى أنى فى أهلى، وأن محمدا فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه[٤].

وفى الصحيح : أن خبيبا أول من سن الركعتين عند القتل[٥]، وقد نقل أبو عمر ابن عبد البر عن الليث بن سعد، أنه بلغه عن زيد بن حارثة : أنه صلاهما فى قصة ذكرها . وكذلك صلاهما حِجْر بن عدى حين أمر معاوية بقتله بأرض عذراء من أعمال دمشق[٦].

ثم صلبوه، ووكلوا به من يحرس جثته، فجاء عمرو بن أمية الضَّمْرِىّ، فاحتمله بجذعه ليلا، فذهب به فدفنه[٧].

ورؤى خبيب، وهو أسير، يأكل قطفا من العنب، وما بمكة ثمرة[٨].

---

(١) يَاسَ : بمعنى يئس .
(٢) فى هـ : «إنى» ، وما أثبتناه من خ، ق ، ك .
(٣) فى ق: «ممنع» . والشِّلْو : العُضْو . والمُمَزَّع : المقطوع .
(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٣ / ١٢٧ ـ ١٣١)، ودلائل النبوة للبيهقى (٣ / ٣٢٤، ٣٢٥) .
(٥) البخارى فى المغازى (٣٩٨٩) .
(٦) الاستيعاب على هامش الإصابة لابن عبد البر (١ / ٣٥٦، ٣٥٧) .
(٧) أحمد (٤ / ١٣٩)، وقال الهيثمى فى المجمع (٥ / ٣٢٤) : «وفيه إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع، وهو ضعيف» .
(٨) البخارى فى المغازى (٣٩٨٩)، ودلائل النبوة للبيهقى (٣ / ٣٨١) .

وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية، فقتله بأبيه[١] .

وأما موسى بن عقبة، فذكر سبب هذه الوقعة[٢] : أن رسول الله ﷺ بعث هذا[٣] الرهط يتجسسون له أخبار قريش، فاعترضهم بنو لَحْيان[٤] .

obeikandl.com

(١) دلائل النبوة للبيهقى (٣ / ٢٧) .
(٢) فى خ : «الواقعة» ، وما أثبتناه من ق ، ك ، هـ.
(٣) فى هـ : «هؤلاء» ، وما أثبتناه من خ، ق ، ك.
(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٣ / ١٢٣)، ودلائل النبوة للبيهقى (٣ / ٣٢٣) .